٣ ــ ممارسات البحث العلمي الاجتماعي

بين الهندسة الاستعماليّة القسريّة والحوار الثقافي الخلاّق

د. نبيل مرقص

في سنة ١٩٧٩ تمكن أهالي «حي إسكان محيي» بالخلفاوي بشبرا بالاعتماد على جهودهم الذاتية، وبدون تدخل فعلي من الأجهزة الحكومية المسؤولة، تمكنوا من مواجهة مشكلة طفح المجاري المزمنة التي كانت تؤرقهم، وتضغط عليهم عضويا وصحيًا ونفسيًا لسنوات طويلة؛ فقد نجح أهالي المنطقة تحت قيادة مجموعة من الرواد المتميزين فكريًا وماديًا وسلوكيًا في إيجاد حل ذاتي للمشكلة باستخدام بعض أدوات تسليك المجاري التي تمكنوا من شرائها؛ وفي خطوة تالية قام الأهالي بتنظيف المساحات الفضاء التي تقع بين التجمعات السكنية في منطقتهم من البرك والمستنقعات التي خلفتها مياه المجاري، وقاموا بعد حرثها وتجهيزها بزراعتها وتشجيرها على هيئة حدائق زينة أنيقة ومنسَّقة في أشكال هندسية جميلة، تولوا هم بأنفسهم ـ مع مساعدة محدودة من مُهندسة الحدائق بالمنطقة ـ مسؤولية تنسيقها ورعايتها والحفاظ عليها. وتميزت التجربة بالمشاركة الجادة والتعبئة الحماسية لكل عناصر هذا المجتمع المحلي من شباب وكبار، سيدات وأطفال، متعلمين وحرفيين وتجار، ومن فقراء ومحدودي الدخل وأثرياء. وبدت المنطقة كلها بنظافتها وجمالها و«هدوئها» تمثل نموذجًا مغايرًا تمامًا للملامح التقليدية المميزة لمناطق الإسكان الشعبي في مدينة القاهرة حيث تتكدس عادة أكوام القمامة، وينتشر طفح المجاري، وتموج المنطقة السكنية بأسراب الدواجن والطيور، وتضج بمظاهر العنف اللفظي والجسدي.

وبمبادرة شخصية من د. وفاء عبد الله الخبيرة بمركز التخطيط الاجتماعي والثقافي بمعهد التخطيط القومي، حيث نجحت في استثارة اهتمام زملائها بالمركز من خلال المعلومات الأولية التي تجمعت لديها عن وجود ظاهرة اجتماعية غير تقليدية بإحدى مناطق الإسكان الشعبي بحي شبرا، وبدعم وتوجيه من د. أشرف حسونة مدير مركز التخطيط الاجتماعي والثقافي بالمعهد، قام فريق من الباحثين برئاسة د. وفاء عبد الله، وعضوية د. سلمى جلال، ونبيل مرقص ـ كاتب هذا البحث ـ بدراسة هذه الظاهرة من خلال عدد من الزيارات الميدانية المتتالية وجلسات الحوار الممتد مع المبحوثين من أهالي المنطقة تركزت في الفترة من ١٦/ ١١/ ١٩٨١ إلى ١٨/ ١/ ١٩٨٢. وتجدر الإشارة إلى أن تخصصات هؤلاء الباحثين أعضاء الفريق البحثي هي على الترتيب: هندسة حدائق، طب مجتمع، وتخطيط تنمية.

١ ـ تجربة «حي إسكان محيي» وإيديولوجية البحث العلمي الاجتماعي

تمثل هذه التجربة نوعية فريدة من الأبحاث الاجتماعية غير التقليدية، حيث نزل ثلاثة من الباحثين غير المتخصصين في علم الاجتماع الأكاديمي ليدرسوا ظاهرة اجتماعية تنموية أثارت اهتمامهم البحثي والإنساني على حد سواء. وجرت محاولتهم لدراسة هذه الظاهرة ـ بتشجيع وتوجيه من مدير المركز البحثي الذي يعملون به ـ متحررة إلى حد بعيد من التقيد المسبق بطقوس وممارسات المنهج العلمي التقليدي في العلوم الاجتماعية. وفي هذا الإطار من «التجريب المنهجي» تقدِّم لنا هذه التجربة فرصة هامة للتعرف على النواقص والتناقضات التي يعاني منها ذلك المنهج العلمي التقليدي، والتي يتم تجاهلها عادة من قِبَل الباحثين المحترفين، إلى جانب كشف أسرار الطقوس والممارسات المنهجية المتخصصة التي يحتمي بها هؤلاء الباحثون ليكتسب عملهم مشروعية «العلمية» وهيبتها. فالانصياع غير النقدي لنمطية مناهج البحث الاجتماعي المتعارف عليها، والاستخدام الآلي للأساليب الكمية ولاستمارة الاستبيان التقليدية كمسلمات منهجية لا تقبل الجدل

والمناقشة، والإيمان الغيبي بأنه لا يمكن أن يوجد «علم» أو «منهج علمي» بغير اللجوء المتزايد والالتزام المتشدِّد بهذه الأساليب الكمية والأدوات البحثية النمطية، يجعل أصحاب هذا الاتجاه في النهاية ينسون أن «العلم» و«المنهج العلمي» و«أدوات البحث العلمي» ليست سوى منتجات إنسانية تعاني من كل ما يتصف به الكائن البشري من «نقائص» و«تناقضات» وتحتاج باستمرار إلى تعريضها إلى جرعات من المراجعة النقدية و«الشك» الخلاق.

فالعلم في حقيقته نشاط اجتماعي موجه يسعى لإنشاء وإنتاج نسق خاص من المعاني والرموز يزعم أصحابه من المتخصصين بأنه يتميز بمستوى وجودي (أُنطولوجي) Ontological معين يرقى عن مستوى حقائق الحياة اليومية الدارجة Commonsensual Reality التي ينشئها العامة من غير المتخصصين. ويحاول «رجال العلم» التوصل إلى هذا المستوى «الأنطولوجي» المتميز الذي يحقق لهم مستوى أعلى وأرقى من «الحقيقة»، من خلال إلزام أنفسهم بممارسة انضباط منهجي صارم يقوم على التقيد بمواصفات المنهج العلمي التجريبي وحرفيته مع الالتزام بشخصية العالِم الموضوعي «المحايد» الذي يفصل بين عواطفه الشخصية وبين دوره البحثي والعلمي، والذي يمارس دور الملاحِظ «المتجرد» الذي يحافظ باستمرار على «تعاليه الإكلينيكي» عن موضوعات ملاحظته.

ويمكننا القول بأن هذا الانضباط المنهجي الصارم، وتلك الشخصية العلمية المتجردة هما مجرد «نماذج مثالية» توجد في كتب مناهج البحث، ولكن يتعذر وجودها في واقع الممارسات الفعلية للبحث العلمي الاجتماعي. فالباحث مهما زعم بأنه محايد وموضوعي لا يمكن أن ينكر أنه كإنسان مفكر يملك عالمًا خاصًا من المعاني والرموز، أو على حد تعبير توماس كُون[1] فإنه يملك نسقًا خاصًا Paradigm ينشئ داخله حقيقته الخاصة التي تتضمن وتقوم على تحيزاته الفكرية والشخصية المميِّزة، والتي

---

(١) انظر: T. S. Kuhn; The Structure of Scientific Revolutions, The University of chicago Press, Second Edition, 1970.

تجعله يرى العالم الخارجي بعيون غير محايدة أو بعيون «ملوثة» بتلك التحيزات الخاصة. فالباحث لا يستطيع أن يزعم أنه يستقبل الواقع على شاشة بيضاء نقية مستعدة لاستقبال كل ما يصل إليها من معلومات حسية بموضوعية وانضباط «عداد جيجر» الذي يقيس شدة الإشعاع الساقط عليه. بل إن الباحث له مصلحة شخصية محددة في فرض نسق معين من المفاهيم والأفكار على الحقيقة العملية Empirical Reality التي تواجهه وذلك قبل أن يسمح لها بالدخول والاستقرار داخل عالم المعاني والرموز ونسق الحقيقة الخاص به. فهو في الأساس مهتم بتأكيد صحة تحيزاته الفكرية وشخصيته الأساسية في مواجهة ذاته والآخرين. وأي حقيقة علمية جديدة تحاول اقتحام عالمه الخاص تمثل فرصة لإضافة عناصر دعم ومساندة من الواقع الخارجي لعالم المعاني الداخلية ونسق الحقيقة اللذين يمتلكهما. أما إذا كانت هذه الحقيقة العلمية الجديدة تحوي من عناصر التعارض والمناوأة ما يهدد سلامة واستقرار ذلك العالم الداخلي من المعاني والتحيزات فإن الباحث يواجَه بأحد اختيارين؛ إما أن يقرر أن يقبل هذه الحقيقة العلمية «المناوئة» المهددة لاستقرار الفرضيات الأساسية لعالمه الخاص، وذلك بأن يستوعبها على هامش ذلك العالم الداخلي بعد أن يصِمَها بالشذوذ ويقبلها كاستثناء يؤكد القاعدة التي تنفيه. وبالتالي يكتسب وجود تلك الحقيقة العلمية الجديدة داخل هذا العالم الداخلي الخاص، هذه الحالة الهامشية الشاذة أو ما يسميه توماس كُون بالحالة الخارجة عن المألوف Anomaly.

ولكن في حالة ما تكون تلك الحقيقة العلمية المناوئة من الضخامة والشذوذ بحيث يستحيل تطبيق ذلك الحل التهادني الذي ينزَع نحو إيجاد شكل من أشكال التعايش والتصالح معها والقبول المشروط لها، فإن الباحث قد يجد نفسه مضطرًا إلى الدخول في شكل من أشكال الصراع المفتوح مع هذه الحقيقة العلمية الجديدة المستعصية على الخضوع لفرضيات عالَم المعاني ونسق الحقيقة الذي ينتمي إليه. وفي سياق هذا الصراع المفتوح مع الحقيقة العلمية المناوئة بغرض محاولة التفسير «العلمي» لها. قد يصبح من المطلوب تسطيح التمايز الكيفي الداخلي للظاهرة البحثية وتفتيت «كلِّيتها العضوية» Organic Holism إلى عناصر وكيانات جزئية وكمية «أقل

مناوأة» يسهل إخضاعُها واحتواؤها وتلوينها «بشروط عالَم المعاني والرموز ونسق الحقيقة الذي يعمل الباحث في إطارهما والذي يهمه أن يحافظ على استقرار وثبات فرضياتهما الأساسية طوال فترة المواجهة الفكرية والبحثية مع هذه الحقائق والوقائع الخارجية المناوئة[٢]. وفي هذا الإطار فإن هدف الباحث الرئيسي يصبح قهر وإخضاع وهندسة الظاهرة أو الواقعة البحثية الخارجية بغرض تحقيق علاقة قوة وسيطرة تجاهها.

ولكن من ناحية أُخرى فإن الرغبة الحقيقية في تحقيق «التفهم المتعاطف» Sympathetic Understanding للظاهرة أو الواقعة البحثية بشروطها الخاصة حتى وإن تعارضت مع التحيزات الفكرية والشخصية الخاصة بالباحث، والجهد الصادق في الحوار والتفاعل الخلاق معها بدلاً من قهرها وإرغامها قسرًا على الانصياع لفرضيات وتحيزات نسق الحقيقة الخاص بالباحث، قد يؤديان إلى قيام الباحث بتغيير وتعديل بعض الفروض الأساسية لعالَم المعاني الخاص به ليتمكن من «توسيع» مكان أرحب لهذه الحقيقة العلمية الجديدة يسمح لها بالدخول إلى عالمه الخاص بشكل فعال دون أن تفقد الملامح المميزة لكليتها العضوية ولتمايزها الكيفي الداخلي. وبالتالي فإن الصراع والتفاعل الخلاق مع هذه الظاهرة أو الواقعة البحثية سوف يؤدي في النهاية إلى نوع من التغيير في عالم المعاني والرموز الذي يمتلكه الباحث وإلى تعديلات في نسق الحقيقة الذي يتحرك داخله. وفي هذا السياق يصبح الالتزام الأساسي للباحث هو تحقيق علاقة تفهم وحوار حقيقي مع الظاهرة بكليتها العضوية، وتمايزها الكيفي الداخلي حتى ولو أدى ذلك إلى تغيير وتعديل المفاهيم والفرضيات والتحيزات الأساسية التي يتبناها الباحث أصلاً.

ويؤدي الاختلافُ بين عوالم وأنساق الحقيقة للباحثين (الاختلاف بين أجهزة الرصد والاستقبال الإنساني عند كل منهم) إلى اختلاف في السياق الذي سوف تنشأ داخله الحقيقة العلمية «الموضوعية».

---

(٢) انظر: B. Wynne; C. G. Barkla and the J. Phenomenon, *Social Studies of Science*, No. 6, 1976.

إن تحديد المعاني والمفاهيم وشروط استقبال واستيعاب الحقيقة العلمية الجديدة سوف يختلف باختلاف الباحثين. فبينما قد يجد أحدهم حقيقة علمية مواتية تؤكد تحيزاته الفكرية والشخصية وتدعم عالم المعاني ونسق الحقيقة الذي استَقَرَّ علَيه مما يجعله يقبل عليها بشغف كحالة واقعية محددة تمثل إثباتًا عمليًا لفروضه وتحيزاته النظرية المسبقة، يرى الآخر في نفس الحقيقة العلمية أو الواقعة البحثية حقيقة «معادية» لأنها تنفي وتناقض بعض الفروض النظرية والتحيزات الشخصية الأساسية التي يتبناها ويتوحد بها داخل عالم المعاني ونسق الحقيقة الخاصين به. وبالتالي فإن عناصر الصراع الفكري والمنهجي تصبح كامنة في ظروف المواجهة بين باحثين ذَوَي عالمين مختلفين من المعاني وينتميان إلى أنساق نظرية متعارضة Adverse Paradigms، وذلك في سياق محاولتهما المشتركة لفحص الحقيقة العلمية ودراستها، أو الواقعة البحثية الواحدة. فما قد يراه أحدهما من عناصر تؤكد وتساند تحيزاته النظرية وتدعم عالم المعاني الخاص به، قد يمثل للآخر تهديدًا وتحديًا أساسيًا لعالم المعاني ونسق الحقيقة اللذين ينتمي إليهما مما يدعوه إلى إدخال تعديلات وتغييرات أساسية فيهما. وبالتالي فإنه من المرجح أن ينشأ بينهما صراع منهجي وفكري حول أيهما «أصح» علميًا، وأي عالمي المعاني ونسقي الحقيقة أجدر بالانتصار وفرض تحيزه ورؤيته وشروط استقباله على الواقعة البحثية التي يواجهانها معًا.

وتمثل عملية التفسير «العلمي» لهذه الواقعة البحثية المحور الأساسي لهذا الصراع. فهدف التفسير هو إزالة أي عناصر للتوتر بين الواقعة البحثية الخارجية وعالم المعاني الداخلية للباحث، بحيث يمكن للباحث أن يحتوي ويستوعب تلك الواقعة الخارجية ليحولها إلى جزء داخلي من عالم المعاني ونسق الحقيقة الخاصين به، وذلك بعد تفريغها من عناصر خصوصيتها «الخارجية» وإكسابها معنى «داخليًا» يجعلها متناغمة ومتجانسة مع باقي عناصر النسق الذي يتحرك داخله. وفي هذا السياق يبدأ كل من عالمي المعاني المختلفين في محاولة فرض منطقه الخاص ولغته الداخلية وتعريفاته المتحيزة على نفس الموضوع «الخارجي»، ويحاول كل منهما أن

يحوِّل تدريجيًا ذلك الموضوع الخارجي إلى جزء داخلي من بناء نسق الحقيقة الذي ينتمي إليه، بحيث يكتسب ذلك الجزء الجديد علاقة عضوية بباقي أجزاء ذلك النسق، ويسهم بالتالي في تدعيم الفرضيات الأساسية والتحيزات النظرية التي ينبني عليها.

٢ ـ ملامح الصراع الفكري والمنهجي في تجربة حي إسكان محيي

بادئ ذي بدء يجب ألا يخجل الباحثون والعلماء من كشف ومواجهة الصراعات والخلافات الفكرية والمنهجية التي تنشأ في سياق ممارستهم البحثية والعلمية. وذلك على أساس أن محاولاتهم المستمرة لتقديم نشاطهم العلمي والبحثي على أنه نشاط «يوتوبي» يجري بين كائنات مثالية «فوق ـ بشرية» تحكمها قيَم عقلانية وأخلاقية وسلوكية «فوق ـ إنسانية»، هي في حقيقتها محاولة لتعمية أنفسهم عن الحقائق الفعلية للنشاط العلمي والبحثي كنشاط إنساني يحوي من النقائص والتناقضات ومن عناصر الصراع والخلاف، ما يماثل أي نشاط إنساني آخر. وعلى العكس فإن الأمانة «العلمية» والأخلاقية للباحث والعالم تقتضي منه أن يواجه نفسه والآخرين وخاصة جمهور العامة من غير المتخصصين بحقيقة الصراعات والخلافات والتناقضات التي يتعرض لها، بحيث يبدو النشاط العلمي في صورة واقعية أكثر إنسانية وأقل يوتوبية، وبحيث تبدو صورة العلماء والباحثين عند الجمهور العادي صورة إنسانية عادية لبشر عاديين يخطئون ويختلفون ويتصارعون ويقعون في أحيان كثيرة أسرى لتحيزاتهم الشخصية ولمعاييرهم الذاتية اللاعقلانية، وأنهم ليسوا بالضرورة دائمًا عقلانيين موضوعيين ملتزمين بقواعد العقل والمنطق والمنهج العلمي[٣].

وبالتالي فإن ذلك الكشف المستمر لأسرار كواليس البحث العلمي يعطي ضمانة قوية ضد النزعة المتزايدة نحو «تأليه» العلم والعلماء،

---

(٣) انظر: M. Mulkay; *Cultural Growth in Science, Social Research,* Vol. 36, 1969.

ويعطي حصانةً للجمهور العادي ضد الانبهار المتزايد بقدرات العلم والانصياع لقرارات وأحكام الصفوة العلمية التي تستمد مشروعيتها من تلك الصورة المثالية «المضللة» للعلم كنشاط عقلي محايد لا يبغي إلا وجه الحقيقة ولا يهدف إلا إلى تحقيق التقدم المستمر لبني البشر.

تتيح تجربة حي إسكان «محيي» فرصة غير عادية لفحص ودراسة تلك الملامح الخفية لكواليس البحث العلمي الاجتماعي. فالفريق البحثي بطابع الهواية الذي يحكم أفراده ونقص الخبرة المنهجية لديهم، مارس نوعًا من التجريب المنهجي غير المعلن واتخذ في شجاعة (أو في «تهور») عددًا من الإجراءات المنهجية غير التقليدية. ومع ذلك فقد كان هناك منذ البداية ملامح للخلاف المنهجي المستمر بين أفراده، والذي تراوحت شدته في الفترات المختلفة من البحث وإن بلغ الذروة في المرحلة الأخيرة من البحث في سياق مناقشة صورة ومضمون التقرير النهائي للبحث. ولقد كان الخلاف منذ البداية هو خلاف بين مدرستين فكريتين متمايزتين في منهج تَنَاوُلِ ودراسة الظاهرة الاجتماعية الحية. فالمدرسة الأُولى تؤمن بأهمية الغوص داخل الظاهرة الاجتماعية قدر الإمكان مع محاولة التحرر إلى درجة كبيرة من التحيزات الشخصية والفكرية المسبقة للباحث أثناء اقترابه المتزايد من نسق المعاني والقيم والمفاهيم واللغة الداخلية الخاصة بالظاهرة. وبالتالي تصبح عملية البحث عملية تعليم وتغيير و«تثقيف» Acculturation للباحث بحيث تُخرجه من حدود عالم المعاني ونسق الحقيقة الخاص به وتحرره قدر الإمكان من تحيزاته الفكرية والشخصية المسبقة وتجعله يقترب من «داخل» العالم الثقافي والشخصي ونسق الحقيقة الخاص بالمبحوثين[٤]، وذلك بغرض

---

(٤) بحيث يكتسب البحث العلمي الاجتماعي جانبًا تعليميًا وتثقيفيًا وتحريريًا من خلال تعرض الوعي الداخلي الثقافي والفكري والإنساني للباحث المتمركز حول الذات لتأثيرات ذلك العالم الثقافي المغاير للمبحوثين الذي يحاول الباحث جاهدًا أن «يخطو داخله». انظر على سبيل المثال: C. Castaneda; *The Teachning of Don Juan*: A Yaqui Way of Knowledge, Penguin Book, 1970.

محاولة رؤية الظاهرة بأعين أهْلِها وفي كلِّيتها العضوية، وبكل أبعاد تمايزها وثرائها الكيفي الداخلي. أي أن الباحث يصبح أكثر اقترابًا من ذلك المستوى الوجودي (الأنطولوجي) الذي يعبر عن «الظاهرة في ذاتها» ويعتمد هذا المنهج على الدخول في علاقة حوار وتفاعل حقيقي مع الظاهرة، مع تشجيعها على غزو الوعي الداخلي للباحث لتتصارع وتتحاور مع مفاهيمه وفرضياته المسبقة، وتحاول أن تسهم في إعادة تشكيل وصياغة هذا الوعي بشروطها الخاصة وبلغتها الداخلية؛ بحيث يخرج الباحث في نهاية التجربة وقد تركت الظاهرة بصماتها المميزة داخل وعيه وداخل مخزون تجربته الإنسانية الخاصة، أي أن الباحث يخرج «ملوثًا» من خلال تفاعله الحي والخلاق مع الظاهرة، وذلك في إطار علاقة شخصية حميمة عن قرب مع الظاهرة وقاطنيها. وهو في محاولة تحريك الظاهرة داخل إطار تنموي ـ وذلك في حالة الأبحاث الاجتماعية المرتبطة بإجراءات تطبيقية وتنموية Action Research ـ يعتمد بالأساس على منهج الحوار المتصل والمستمر، وعلى مشروعية فهمه المتزايد للظاهرة، وقبول قاطنيها لوجوده ولممارسته البحثية والتنموية داخل الظاهرة. وهو يعمد إلى تحريك مواقعه الفكرية والشخصية وتعديل تصوراته للنموذج التنموي المستهدف كرد فعل مستمر لتطور وعيه وعلاقته بالظاهرة وتأثير تصورات قاطنيها عليه. ذلك المنهج هو ما نسميه بمنهج الحوار الثقافي والإنساني الخلاق.

بينما يعبر الاتجاه الآخر عن الرغبة في الدخول في علاقة «قوة عن بعد» مع الظاهرة بدون التورط في علاقة شخصية عن قرب مع الظاهرة وقاطنيها، وهنا فإن الباحث يحتفظ بمسافة بينه وبين الظاهرة وعلاقته بها وبقاطنيها تتسم بأنها علاقة لا شخصية Impersonal متباعَدة، Detached هدف الباحث الرئيسي منها هو تحقيق ذلك التحكم المتزايد «فكريًا» من خلال تفتيت كلِّيتها العضوية إلى مجموعة من العلاقات السببية والمنطقية بين عدد من الكيانات والأنساق الجزئية مع تسطيح تمايزها الكيفي الداخلي إلى مجموعة من المؤشرات الكمية الخارجية، التي تسمح للباحث بأن يحيط كميًا بالظاهرة وينقلها لآخرين

في لغة العلم المتخصصة، وأيضًا التحكم «عمليًا» بتوجيه حركة الظاهرة إن أمكن (في حالة الأبحاث المرتبطة بإجراءات تطبيقية وتنموية) في الاتجاه الذي يرى الباحث أنه يمثل الحالة «الأفضل» لهذه الظاهرة ولقاطنيها. وهذه الحالة «الأفضل» قد تمّ تقريرها مسبقًا اعتمادًا على التحيز الفكري والمنهجي للباحث. فالمطلوب تحريك الظاهرة باستخدام علاقة «القوة عن بعد» نحو النموذج التنموي المثالي الذي يتبناه الباحث، ويتفق مع نمط تحيزاته الفكرية والعقائدية. وهو غير مستعد إطلاقًا لمراجعة هذه التحيزات أو تعديل ملامح ذلك النموذج التنموي المنشود نتيجة لتفاعله مع الظاهرة، بل على العكس فهو حريص ألا يؤثر تفاعله مع الظاهرة بأي شكل من الأشكال على تكوينه الفكري والعقائدي. لذلك فهو يحتفظ طوال الوقت بالعلاقة اللاشخصية المتعالية على الظاهرة.

ويستمد الباحث مشروعية ممارساته البحثية والتنموية من أيديولوجية «الخبرة العلمية» التي تزعم بأن العلماء يفهمون عن الظاهرة الاجتماعية التي يدرسونها أكثر مما يفهم عنها أصحابها أنفسهم. وبالتالي فإن على المبحوثين أن يقبلوا الدخول في علاقة قوة غير متكافئة مع هؤلاء الخبراء الذين أرسلتهم «العناية الإلهية» لكي ينتشلوهم من «التخلف» المادي والفكري الذي يعانون منه. وعندما يستسلم أصحاب الظاهرة لعلاقة القوة الجديدة هذه ويقبلون سلطة الخبراء «العلميين» على حياتهم ومستقبلهم، يتحول هؤلاء البشر تدريجيًا إلى كيانات تابعة ومعتمدة في سلوكها وممارستها على القرارات التي يتخذها لهم هؤلاء الخبراء استنادًا إلى خبرتهم العلمية «المعقدة». وبالتالي يكتسب هؤلاء الخبراء تدريجيًا سلطة مطلقة لتشريح وتفكيك أجزاء حياة هؤلاء البشر تمهيدًا لإعادة تركيبها وتشكيلها بالشروط التي تساعد على الاقتراب من ذلك النموذج التنموي المثالي الذي تمّ تقريره «قسرًا» كحالة أفضل للظاهرة ولقاطنيها. ويتحول البشر بالتالي في إطار ذلك المنهج من، «ذوات» إنسانية مستقلة وفاعلة إلى «موضوعات» للاستعمال التقني والبحثي في أيدي الخبراء والباحثين. ذلك المنهج هو ما نسميه بالهندسة

الاستعمالية «القسرية»[٥] ويمكن إبراز ملامح الخلافات الرئيسية بين المنهجين كما يلي:

منهج الهندسة الاستعمالية القسرية (منهج التحليل الكمي الخارجي للظاهرة الاجتماعية الحية)	منهج الحوار الثقافي والإنساني الخلاق (منهج التحليل الكيفي الداخلي للظاهرة الاجتماعية الحية)
* الظاهرة الاجتماعية الحية مثلها مثل الظاهرة الطبيعية ذات الإمكانات الاستعمالية غير المحدودة، يمكن إخضاعها بشكل مطلق لقوانين الضبط والقياس	* الظاهرة الاجتماعية الحية هي ظاهرة متمايزة كيفيًا عن الظاهرة الطبيعية، وجوهر تمايزها الكمي يتمثل في نسق المعاني الداخلية واللغة الحية المتجددة التي تجمع بين

(٥) تمثل تجربة حسن فتحي مع أهالي قرية القرنة بالأقصر في الأربعينيات من هذا القرن، نموذجًا ممثلاً لمنهج الهندسة الاستعمالية القسرية. حيث حاول حسن فتحي - بناء على قرار من الأجهزة الحكومية المعنية - اقتلاع هؤلاء الأهالي من موطنهم الأصلي وسط المقابر الأثرية وتفكيك أجزاء حياتهم «التقليدية» المعتمدة على نقب المقابر والمتاجرة في القطع الأثرية، بأمل إعادة تركيبها واستزراعها و«هندستها» داخل قرية نموذجية «حديثة» تعبر عن أحلام وطموحات الفنان «الفرد» أكثر مما تعبر عن الاحتياجات الفعلية والطموحات الحقيقية للجماعة الإنسانية المعنية. وذلك مع اقتناعنا الشخصي بصدق النوايا الطيبة والقيم الفنية المثالية التي دفعت حسن فتحي لإجراء التجربة الطليعية. ونحن نلاحظ من خلال تأمل هذه التجربة أن «المثقف الفرد» يتبنى في مواجهته المعملية/الميدانية مع «الظاهرة الاجتماعية الحية» التي يحاول ممارسة السيطرة الفكرية والمنهجية عليها، نفس الموقف «الكوني» الذي تتخذه الحضارة العَلمانية الغربية في مواجهتها مع كل الظواهر الطبيعية والإنسانية الحية، وهو موقف «المنظم» و«الفاعل» الخارجي المستعد أن يصل في مدى سيطرته وتحكمه في «موضوع» فعله إلى حد إخماد وتدمير جوهر وإرادة الحياة الحرة المستقلة داخل الظاهرة التي تواجهه، وهو ما يجعل منتجات «الهندسة الاستعمالية القسرية» وليدة الموقف الكوني للحضارة العَلمانية الغربية التي تعاني بشكل مزمن من أزمة فقدان القوة الروحية الداخلية وتحولها باستمرار إلى «هياكل مادية» ذات هوية خارجية ميتة. لمزيد من التفصيل انظر:

N. K. Morcos; Technical Rationality, *Technical Elites, and the «Technification» of Underevelopment*, Unpublished MSc thesis presented to Manchester University, March 1981, Chap. IV.

والتحكم والتفسير السببي من خلال ممارسات منهج البحث العلمي التجريبي المستخدم في العلوم الطبيعية، حتى ولو أدى ذلك إلى تفريغ الظاهرة موضع الدراسة من مصدر الحياة المستقل داخلها[٦]، وكل ما لا يمكن تفسيره سببيًا وقياسه و«تفتيته» كميًا باستخدام أدوات القياس الكمي المحايدة من خارج الظاهرة، فهو «ثانوي» يمكن استبعاده وإهماله.

* الباحث يقف «خارج» الظاهرة، سجينًا لصياغاته وقوالبه الجاهزة ولشخصيته العلمية والأكاديمية «المُقَولَبَة»، وللغته المتخصصة والمعقدة، وهو غير مستعد للمساومة أو للتراجع عن هذه الصياغات النظرية الأساسية أو عن ملامح شخصيته العلمية «الرسمية» التي تخفي ملامح شخصيته الإنسانية الطبيعية، وذلك في سبيل رؤية أفرادها وتبرز هويتهم الثقافية المتميزة وإرادتهم الجمعية المستقلة. هذا الجوهر الكيفي المتميز لا يمكن قياسه أو «تفتيته» كميًا، وهو غير متاح للغرباء من خارج الظاهرة إلا بقدر محاولتهم التفهم المتعاطف للظاهرة وملامحها الداخلية، في إطار المحافظة على كلِّيتها العضوية واستقلالها الروحي.

* الباحث يحاول قدر الإمكان أن يعلق Suspend انتماءاته النظرية والفكرية والثقافية والشخصية المسبقة حتى لا تطغى على رؤيته الغضة Fresh Look للظاهرة. وهو يحاول أن يخطو تدريجيًا «داخل» الظاهرة متحررًا قدر الإمكان من أَسْرِ شخصيته العلمية الرسمية، ومعتمدًا بالأساس على شخصيته الإنسانية

(٦) وهو الموقف «العلمي» التجريبي نفسه ـ في إطار الحضارة العَلمانية الغربية ـ الذي يتبناه عالم (البيولوجي) في مواجهته مع «الظاهرة البيولوجية الحية» حيث يضطر في سبيل تحقيقه لأقصى درجات «الفهم» و«السيطرة» على الظاهرة الحية أن يصل إلى حد إخماد وتدمير مصدر الحياة المستقلة داخلها لتتحول في النهاية من كيان روحي حي له إرادته الذاتية المستقلة إلى «جسد ميت» مستسلم تمامًا ـ على مائدة التشريح ـ لإرادة الباحث والعالم والآليات والتفتيت والتمزيق التي يحاول أن يخترق بها جوهر الحياة للظاهرة المختفية في نسيج كلِّيتها العضوية. وهكذا يصبح شرط إخضاع الظاهرة الحية لآليات التجزئة والتفتيت التي تسبق احتواء «وهضم» عناصرها داخل نسق «الحقيقة العلمية» الذي يعمل من خلاله الباحث/ العالم، يصبح هذا الشرط هو أن تتحول الظاهرة من كيان روحي حي إلى هيكل فيزيقي ميت.

أوضح واقتراب أكثر من «داخل» الظاهرة ومن الحقيقة الاجتماعية المتعارف عليها التي يعيشها داخل الظاهرة.

* الباحث يخفي التناقض بين عالم المعاني النظرية والقيم العلمية والأكاديمية واللغة المتخصصة الذي ينشئ داخله الحقيقة «العلمية» الموضوعية عن الظاهرة المبحوثة وعالم المعاني الذاتية والقيم الثقافية واللغة الحية الدارجة الذي ينشئ داخله المبحوثون حقيقتهم الاجتماعية المتعارف عليها. وهو ينظر إلى ذلك النسق من المعاني والقيم واللغة الحية، كمادة خام «غير علمية» يلزم هندستها وإعادة صياغتها وإنشائها «علميًا» دليل النسق النظري الذي يتبناه الباحث، وباستخدام ممارسات المنهج العلمي التجريبي. وهو يحمي نفسه من تأثيرات ذلك العالم الثقافي المغاير، باحتفاظه باستمرار بمسافة نفسية وعقلية ثابتة من المبحوثين من موقع التعالي الإكلينيكي وفي إطار علاقة قوة وتحكم عن بعد.

* الباحث لا يرى - من موقع التعالي الإكلينيكي على الكيانات الإنسانية موضوع البحث ومن داخل «سجن» شخصيته العلمية المقلوبة المفرغة من أي انفعالات إنسانية شخصية - سوى الملامح الخارجية الطبيعية، بغرض تحقيق الفهم المتعاطف للمبحوثين، وللحقيقة الاجتماعية التي يعيشونها داخل الظاهرة.

* الباحث لا يخفي التناقض بين عالم المعاني النظرية والقيم العلمية والأكاديمية واللغة الثقافية المغايرة الذي ينتمي إليه، وعالم الحقيقة الاجتماعية المتعارف عليها للمبحوثين.

وهو يحاول أن ينشئ من خلال ممارساته البحثية المتخصصة إلى جانب ممارساته الإنسانية الطبيعية، جسورًا فكرية واجتماعية وثقافية ونفسية بينه وبين عالم المبحوثين في إطار علاقة من الحوار الحي والخلاق بينهما. وهو بذلك يسعى باستمرار نحو تقليل المسافة النفسية والفكرية والثقافية بينه وبين عالم المبحوثين من موقع التعاقد الإنساني، وفي إطار علاقة فهم وتحاور عن قرب.

* الباحث يحاول أن يرى من موقع التعاطف الإنساني مع الكيانات المبحوثة، ومن داخل شخصيته الإنسانية الطبيعية المشحونة بمشاعره وانفعالاته الحقيقية، كلَّ الأبعاد والملامح الداخلية لهذه الكيانات

الكمية لهذه الكيانات، بينما تبدو الملامح الداخلية الكيفية لها في هذا السياق غير ذات أهمية. ويتم «تصغير» حجم واختزال تفاصيل تلك الكيانات في وعي الباحث بما يجعلها لا تتجاوز دورها بالنسبة له كموضوعات للاستعمال العلمي والبحثي في إطار علاقة القوة والتحكم عن بعد، أو ما يعرف بعلاقة «أنا/ الشيء».

* الباحث يعتمد أساسًا على أدوات القياس والتفتيت الكمي الخارجي (استمارة استبيان/ مؤشرات إحصائية/ نماذج رياضية/ . . .) وذلك للإحاطة كميًّا بالظاهرة في إطار الصيغ التحليلية الجزئية المستمدة من النسق النظري الذي يعمل داخله، وأيضًا لإثبات صحة الفروض بغرض تحويلها من فروض نظرية إلى نتائج «علمية».

الإنسانية موضع البحث. ويتم تكثيف تلك الملامح والأبعاد الكيفية، مع «تكبير» حجم هذه الكيانات في وعي الباحث، بما يؤكد دورها بالنسبة له كذوات إنسانية مكافئة تدخل معه في حوار ثقافي وإنساني متعمق وخلاق، في إطار علاقة الفهم والتحاور عن قرب أو ما يسمى بعلاقة «أنا/ الآخر».

* الباحث نفسه هو الأداة «الكيفية» الرئيسية القادرة على تحقيق الفهم المتعاطف الكلي للظاهرة، من خلال المقابلات المفتوحة/ الملاحظة بالمشاركة/ التفهم من خلال التوحد Empathetic Identificaton، وذلك للإحاطة بالظاهرة كيفيًا في كلِّيتها العضوية، وفي إطار الصيغ التحليلية التي يحاول قدر الإمكان تخليقها من داخل الظاهرة أو بالاستعانة ببعض المفاهيم «الخارجية» التي تلائم «المناخ الداخلي» للظاهرة (مثل مفهوم «ثقافة الحارة»[٧] في تجربة حي إسكاني محيي). ولا توجد فروض أساسية يسعى الباحث

(٧) انظر: نوال المسيري، «العلاقات الأسرية في حواري القاهرة»، ورقة مقدمة إلى الحلقة الدراسية عن الأسرة والقرابة التي **نظمتها جامعة الكويت** بالاشتراك مع اليونسكو ومنظمة تطوير العلوم الاجتماعية بالشرق الأوسط، الكويت ٢٧ ـ ٣٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٦.

لإثباتها، وبالتالي فلا توجد «نتائج علمية» مطلوب تقديمها. وما يطمح إليه الباحث هو تقديم تفاصيل التجربة الحية المشترَكة التي عاشها مع مجتمع المبحوثين.

* الباحث حريص على تفتيت الكلية العضوية للظاهرة وتشريحها واختزالها إلى عناصرها الأوليّة الأساسية في إطار أجزائها طبقًا لما يمليه. النسق النظري الذي يعمل داخله، بحيث يتحول «التمايز الكيفي» الداخلي للظاهرة إلى اختلاف كمي خارجي في العلاقات الرياضية بين متغيراتها الأساسية (مثل العلاقة بين الدخل/ السن/ التعليم/ المهنة/ وظاهرة «المشاركة الشعبية» في حي إسكان).

* الباحث حريص على الاحتفاظ بالكلِّية العضوية للظاهرة، وهو حريص أيضًا على الاحتفاظ بجوهر تمايزها الكيفي الداخلي واستقلالها الروحي من خلال خلق واكتشاف المفاهيم والصياغات التحليلية النابعة من داخل الظاهرة (مثل مفاهيم «ثقافة الغرفة الواحدة»، و«ثقافة الغرفتين والثلاث» في تجربة حي إسكان محيي»)[٨].

(٨) أدى تراكم الملاحظات الميدانية عن ملامح الاختلاف الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والفيزيقي بين قسمين من مجتمع البحث يتميز أحدهما بوجود الوحدات السكنية التي تحتوي على أكثر من غرفة واحدة ويتميز الآخر بوجود الوحدات السكنية ذات الغرفة الواحدة، أدى إلى قبول نوع من التقسيم الكيفي لمجتمع البحث إلى منطقتين ثقافيتين متمايزتين. فقد ظهر عدد من الفروق بين هاتين المنطقتين في الدخل، ونمط الاستهلاك، ونمط العلاقات الاجتماعية، ومستوى التعليم، ودرجة الاقتراب من نموذج ثقافة الحارة، ودرجة «التفرنج»، وأيضًا مدى نجاح تجربة المساعدة الذاتية. ودعَّم صحة هذا التطور في فهم الظاهرة البحثية أن المبحوثين من المنطقتين الثقافيتين المتمايزتين كانوا واعين تمامًا بهذا الاختلاف النوعي الذي يقسم مجتمعهم المحلي، ويتعاملون معه على أنه حقيقة واقعة. فسكان المنطقة الأولى الذين يحسون بالتمايز والتفوق الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، لم يخفوا ضيقهم واستيائهم من وجود تلك المنطقة الثقافية الثانية الملتصقة بهم والتي تشوه بملامحها الفيزيقية والاجتماعية والثقافية «المتدنية» الصورة الفيزيقية والاجتماعية والثقافية الجديدة المميزة التي نجحوا في خلقها في =

* المفاهيم النظرية والصيغ التحليلية النهائية التي يتم صب وتعبئة وتفتيت الظاهرة داخلها هي «مستوردة» من خارج عالم المبحوثين. وهي ذات ملامح وصياغات ثابتة ومحكمة لا تتغير منذ بداية العمل البحثي وحتى نهايته. وبالتالي فالباحث يظل محتفظًا بصياغاته ومفاهيمه وتحيزاته الفكرية الأصلية التي دخل بها مجتمع البحث ثابتة دون تغيير طوال فترة البحث، حرصًا على استخدام أجزاء من الظاهرة لإثبات صحة ما «يؤمن» هو مسبقًا بصحته من فروض وتحيزات نظرية وفكرية وشخصية.

* المفاهيم النظرية والصيغ التحليلية النهائية تتخلق من داخل الظاهرة، أو بالاستعانة ببعض المفاهيم الخارجية التي تلائم المناخ الداخلي للظاهرة، وهذه المفاهيم والصيغ تنمو وتكتسب ملامحها وقوالبها مع نمو فهم الباحث للظاهرة، ومع اقترابه المتزايد من العالم الداخلي للمبحوثين. وبالتالي فالباحث يطوِّر ويغير من صياغاته ومفاهيمه وتحيزاته الفكرية الأصلية مع تطور الحوار الثقافي والإنساني الحي والخلاق مع الظاهرة.

= منطقتهم من خلال إنشاء حدائق الزينة الأنيقة. وهم بالتالي يعبرون باستمرار عن رغبتهم في نفي أي ارتباط بينهم وبين سكان «الأرض» أو «الصين الشعبية» كما يسمُّون ـ تهكمًا ـ أهالي المنطقة الثانية. ومن ناحية أُخرى فسكان «الأرض» يتطلعون في خليط من مشاعر الإعجاب والغيرة والعداء نحو سكان الغرفتين والثلاث الذين يتعاملون معهم بقدر غير ضئيل من التعالي، وهم يشيرون إليهم في شيء من الامتعاض على أنهم «شايفين نفسهم حبتين». وهكذا أدى ذلك الانقسام الكيفي الواضح في مجتمع البحث، والذي ينعكس في وعي أفراده، إلى صياغة مفهومين إجرائيين للتمييز بين هاتين المنطقتين الثقافيتين سُمي الأول بثقافة الغرفتين والثلاث، وسمي الثاني بثقافة الغرفة الواحدة. ثم شرع الفريق بعد وضع هذه الصياغة الإجرائية التحليلية في ملئها بالمواصفات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفيزيقية التفصيلية، التي تميز كل منطقة ثقافية منهما. وانتقل الفريق بعد ذلك إلى رصد ملامح التدخل والتفاعل والصراع بين العناصر الثقافية «المهيمنة» في كل منطقة والتي تُظهر نفسها في صورة عناصر ثقافية هامشية أو «مطارَدة» في المنطقة الأُخرى، وذلك في سياق المواجهة الثقافية بين المنطقتين.

لمزيد من التفصيل، انظر سلمى جلال، **الصراع الثقافي في حي إسكان محيي بالخلفاوي**، ورقة غير منشورة.

* الباحث لا يهمه في النهاية سوى الخروج بالمنتج البحثي العلمي في صورة مجموعة «النتائج العلمية» والحقائق الموضوعية المحايدة المقبولة من الصفوة العلمية والأكاديمية خارج مجتمع البحث. والباحث يضمن تحقيق عائد أدبي ومادّي مميّز إلى جانب تدعيم مكانته وهيبته العلمية والأكاديمية، من خلال نشر وتسويق هذا المنتج الذي يعتبره «ملكية خاصة» له. وحيث إن ذلك المنتج العلمي هو المحور الأساسي والمبرر الوحيد للعلاقة بين الباحث ومجتمع البحث، فهذه العلاقة تنفرط تلقائيًا بمجرد انتهاء الممارسات البحثية الميدانية داخل مجتمع البحث.

* الباحث ملتزم أساسًا بالقيم العلمية والبحثية والمنهجية التي تصوغها وتقننها الصفوة العلمية والأكاديمية خارج مجتمع البحث. ومسؤوليته الشخصية والبحثية تنبع أساسًا من انتمائه والتزامه تجاه هذه الصفوة وتجاه القيم التي تتبناها. وهو يؤمن بأن هذه الصفوة وحدها هي التي تملك حق إنشاء وإنتاج الحقائق العلمية الموضوعية المحايدة. وبالتالي فهو ينظر بتعال للحقيقة الاجتماعية المتعارف عليها داخل مجتمع البحث بصفتها مادة خام غير علمية «وغير موضوعية».

* الباحث مهتم أساسًا بخلق علاقة إنسانية تحاورية حقيقية بينه وبين مجتمع البحث، بما يثري طرفي العلاقة إنسانيًا وثقافيًا وتنمويًا. وبحيث يصبح المنتَج البحثي العلمي (نتاج التجربة الحية المعَاشَه المشتركة) مجرد ناتج ثانوي لهذه العلاقة، التي يمكن أن تمتد إلى ما بعد انتهاء الممارسات البحثية الميدانية داخل مجتمع البحث. ويصبح هذا المنتَج المشترك ملكًا للطرفين على أساس أن كل «حقيقة» إنسانية هي ملك أساسي «لمنشئيها» بما أنها جزء من خبرتهم الإنسانية الوجدانية المشتركة، مما يضع قيودًا أخلاقية على حقوق وشكل نشره و«تسويقه».

* الباحث ملتزم أساسًا بالقيم التنموية والإنسانية والحضارية التي يصوغها ويقنِّنها في إطار علاقته بالمجتمع الكلي الذي ينتمي إليه.

ومسؤوليته الشخصية والأخلاقية والاجتماعية تتحدد أصلاً في إطار التزامه الذاتي بهذه القيم إلى جانب التزامه الأخلاقي والاجتماعي والتنموي تجاه مجتمع البحث. وهو يضع هذه الالتزامات الأخلاقية والتنموية والمجتمعية قبل التزامه بالقيم العلمية والبحثية والمنهجية للصفوة العلمية والأكاديمية خارج مجتمع البحث.

وهو يحترم الحقيقة الاجتماعية

* في حالة البحث الاجتماعي المرتبط بإجراءات تطبيقية وتنموية، فإن الباحث يتبنى صياغات فكرية ونماذج تنموية جاهزة وثابتة، وهو يحاول تحريك وإدارة الظاهرة بحيث تقترب قدر الإمكان من هذا النموذج التنموي المحدد سلفًا والمفروض من الخارج. وهو لا يتورع أو يتردد في فرض أي عناصر فكرية ومادية غريبة عن مجتمع البحث لتساعد على اقتراب ملاحه من هذا النموذج التنموي «الخارجي» والباحث يستمد مشروعية ممارساته البحثية والتنموية داخل مجتمع البحث في إطار منهج الهندسة الاستعمالية القسرية، من واقع هيبة وسطوة مكانته العلمية والأكاديمية في مواجهة الكيانات الإنسانية المبحوثة التي تتكون في معظمها من العامة غير المتخصصين.

المتعارف عليها داخل مجتمع البحث، ولا يزعم أنه يملك القدرة على إنشاء مستوى أرقى من «الحقيقة» يتعالى على هذه الحقيقة الاجتماعية الدارجة. بل هو يعمل على الحوار معها في احترام وصبر وتواضع ورغبة حقيقية في الفهم والتعلم.

* في حالة البحث الاجتماعي المرتبط بإجراءات تطبيقية وتنموية، فإن الباحث لا يحمل نموذجًا وقوالبَ فكرية وتنموية جاهزة ومحددة سلفًا، وإنما يحاول فهم واكتشاف وتنمية ملامح نموذج «التغير الاجتماعي التنموي» من داخل الظاهرة. وهو حريص على عدم فرض أي عناصر فكرية أو مادية من «الخارج» إلا بقدر احتياج «الداخل»، وإمكانية قبوله واستيعابه و«هضمه» لهذه العناصر. والباحث يستمد مشروعية ممارساته داخل مجتمع البحث في إطار منهج الحوار الثقافي والإنساني الخلاق، من واقع اقترابه وتعمقه وفهمه للمنطق الداخلي واللغة الثقافية الخاصة لمجتمع البحث، ومن واقع درجة قبول مجتمع البحث له واقتناع المبحوثين الحقيقي بحاجتهم إلى ممارساته البحثية والتنموية.

ويتضح مما سبق أن الخلاف المنهجي والفكري بين الباحثين في العلوم الاجتماعية يتخطى حدود «العِلم» ويدخل مباشرة في نطاق

«الأيديولوجية». فهذا الخلاف العلمي والمنهجي هو في حقيقته خلاف حول تصورات الباحث للواقع وكيف «يجب أن يكون». فحين نختلف حول فهم وتفسير «ما هو كائن»، فنحن بالضرورة نعكس خلافنا الأصلي والأساسي حول «ما يجب أن يكون». وحين نختلف «منهجيًا» و«علميًا» يجب أن نتوقف لنبحث خلافنا «الأيديولوجي» الأصلي. و«أيديولوجية» الممارسة البحثية والعلمية لكل باحث تكشف بالضرورة عن موقفه الواعي أو غير الواعي من أيديولوجية التنمية ونهجها «المثالي»، وهل هو نهج الهندسة الاستعمالية القسرية من «الخارج» وعن «بعد» أم هو نهج الحوار الثقافي والإنساني الخلاق من «الداخل» وعن «قرب». وهي تكشف في النهاية عن موقف الباحث الحقيقي الاجتماعي والأخلاقي والإنساني من جمهور المبحوثين وخاصة الطبقات الدنيا منهم. وهل هم بالنسبة له مجرد «موضوعات» للاستعمال العلمي والبحثي عليه أن يحرص على إبقائهم بعيدًا عنه حتى لا يلوث فكره المتعالي وخبرته الإنسانية الرفيعة بأفكار وثقافة ونمط حياة هذه «الكائنات الدنيا»، وأنه في واقع الأمر لا يعنيه من أمرهم شيء سوى ذلك الاهتمام العلمي والأكاديمي اللاشخصي «البارد»، وأنه حريص بمجرد الانتهاء من «استعماله» العلمي والبحثي لهم أن ينفُض عن فكره ووعيه كل «غبار» تلك التجربة الثقيلة على النفس، تجربة الاقتراب من الأنفاس الحية الساخنة لهذه المخلوقات الدنيا «الكريهة»... أم أنه وبحق يشعر بجِدية مسؤوليته الاجتماعية والشخصية والأخلاقية تجاه هؤلاء البشر ربما «الأدنى» اقتصاديًا واجتماعيًا، ولكنهم في كثير من الأحوال الأكثر ثراء والأكثر صدقًا وحيوية وأصالة وربما أيضًا الأكثر «رقيًا» حضاريًا وإنسانيًا. وأنه يراهم فعلاً ككائنات بشرية حقيقية قادرة على الحوار معه في ندية وعلى تغذية وعيه وفكره ومشاعره، بأبعاد إنسانية وثقافية جديدة، وقادرة أيضًا على تحدي تحيزاته ومسلَّماته الفكرية والشخصية، وقادرة بالتالي على مساعدته في تعديلها وتطويرها وإثرائها.

وأنه يدرك في النهاية أن مسؤوليته تجاههم تتخطى عملية استعمالهم علميًا وبحثيًا بغرض «تسويق» ما يمكن اقتناصه وانتزاعه من واقع حياتهم في صورة «سلع علمية جذابة»، وتمتد إلى الرغبة الحقيقية في فهمهم

والتعاطف معهم والتعلم منهم، وأخيرًا مساعدتهم على اكتشاف قدراتهم الذاتية على الإبداع والتجديد والتنمية.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المجموعة من الملامح التي تحاول التمييز بين الاتجاهين الفكريين والمنهجين المتعارضين تكون في الحالتين نموذجًا مثاليًا للاتجاه المعْنِي لا يلزم توافره بالكامل بهذه الصورة «المثالية» عند كل باحث ليمكن الحكم عليه بأنه ينتمي إلى هذا الاتجاه أو ذاك. ولكن من المؤكد على ضوء خبرتنا في «تجربة حي إسكان محيي» أن كل باحث قد يحمل داخله خليطًا من العناصر المتناقضة التي تنتمي إلى الاتجاهين المتعارضين في نمطهما المثالي، ولكن مع تجميع ودراسة مجموع التحيزات الفكرية والاختيارات المنهجية للباحث في مراحل البحث المختلفة يمكن في النهاية تحديد أي هذين النمطين المثاليين أو الاتجاهين الفكريين والمنهجين المتعارضين يحكم تفكير «وإيديولوجية» الممارسة البحثية والعلمية لهذا الباحث.

ففي «تجربة حي إسكان محيي» لم يكن الانقسام الفكري والمنهجي بين هذين الاتجاهين واضحًا منذ البداية. وربما تبنَّى أحد الباحثين من أعضاء الفريق البحثي في جزئية من جزئيات البحث موقفًا فكريًا ومنهجيًا يصنِّفه مع أحد هذين الاتجاهين، ولكنه في جزئية تالية نجده وقد انحاز إلى موقف فكري ومنهجي مناقضٍ للأول مما يضعه داخل الاتجاه المعارض. ولكننا إذا حاولنا رصد مجملِ المواقف الفكرية والمنهجية لأعضاء الفريق الثلاثة في مختلف مراحل البحث، تلك التي تمثل «المادة الحية» التي يمكن من خلالها تحديد وفهم إيديولوجية الممارسة البحثيّة والعلمية لكل منهم، يمكننا القول بأن أحد أعضاء هذا الفريق كان يميل بمجموع مواقفه الفكرية والمنهجية إلى الانحياز إلى الاتجاه المنهجي الأول (منهج الهندسة الاستعمالية القسرية) وإن لم يمنعه ذلك من التقبل والتبني الإيجابي - من خلال الحوار داخل الفريق - لعدد من عناصر الاتجاه الآخر المعارض إثر اقتناعه بها. وبينما مال العضو الثاني من الفريق(*) إلى الانحياز نحو الاتجاه

(*) وهو كاتب هذه الورقة نفسه.

المنهجي المعارض (منهج الحوار الثقافي والإنساني الخلاق) وذلك من واقع موقفه النقدي والرافض للاتجاه الأول، ظل العضو الثالث يمثل حالة مميزة من حيث قدرته على فهم الخصائص الإيجابية والسلبية لكل من الاتجاهين ومحاولته تحقيق شكلٍ من أشكال المزج والتزاوج بين عناصرهما وإن بدا في بعض المواقف متحيزًا للاتجاه المنهجي الأول ربما تعبيرًا عن عدم ثقته الكافية في «علمية» الاتجاه المنهجي المعارض(٩).

ومن المؤكد أن توزيع المواقف والتحيزات الفكرية والمنهجية للفريق البحثي بهذه الصورة ساهم إلى حد كبير في إنجاح الحوار المتصل داخل الفريق بغرض الوصول إلى «حلول وسط» في كل مرة تظهر فيها بوادر الانقسام الفكري والمنهجي تجاه موقف أو إجراء بحثي معين. ففي الموقف من تصميم استمارة البحث على سبيل المثال، كان التحيز الذي يمثله الاتجاه الفكري والمنهجي الأول ينزع نحو تصميم استمارة استبيان تقليدية يتم تشكيلها وصياغتها داخل العالم الثقافي الخاص بالباحثين (عالم ثقافة الطبقة الوسطى المتفرنجة) وذلك باستخدام المفاهيم النظرية والصياغات التحليلية الجاهزة «المستوردة» من علم الاجتماع الغربي. فالاستمارة في هذا السياق كأداة قياس «كمية» تحاول قياس وضبط والتحكم في الظاهرة «عن بعد» ومن «الخارج» دون التورط في علاقة شخصية «تحاورية» Dialogical، علاقة أنا/الآخر مع العالَم الثقافي الداخلي للمبحوثين (عالَم ثقافة الحارة «المتطورة»)، تعكس بالضرورة عقلية وأيديولوجية منهج الهندسة الاستعمالية القسرية بعلاقته اللاشخصية و «اللاتحاورية»(١٠) Antidialogical (علاقة أنا/الشيء) مع الظاهرة الاجتماعية الحية موضع البحث.

وعلى الجانب الآخر كان التحيز الذي يمثله الاتجاه الفكري

---

(٩) فعلى سبيل المثال فإن صياغة الأسئلة التي تعكس بوضوح سمات الاتجاه المنهجي الأول ـ منهج الاستعمالية القسرية ـ داخل استمارة البحث، قد قام بها ودافع عنها بقوة هذا العضو الثالث من الفريق.

(١٠) انظر: P. Freire, *Pedagogy of the Opressed,* Pengiun Books, Fifth Edition, Chap. 3 & 4.

والمنهجي الآخر يعارض منذ البداية فكرة استخدام استمارة الاستبيان التقليدية، ويرفض قبولها كمسلَّمة منهجية وكأداة قياس كَمية «محايدة». وبالتالي فقد كان منحازًا من البداية إلى الاعتماد الكامل على الأدوات المنهجية الكيفية وعلى رأسها المقابلات المفتوحة والمقنَّنة كأداة قياس كيفية «تحاورية». ومع ذلك فعندما ظهر من خلال الحوار المتصل داخل الجلسات المتتالية مع المبحوثين أن أحد قادة تجربة «المساعدة الذاتية» - Self Help التي قام بها أهالي المنطقة والتي سبق أن أشرنا إليها في مقدمة هذه الورقة كانت تراوده منذ فترة فكرة عمل استمارة إحصائية بغرض تقييم التجربة ولم يتسَنَّ له تنفيذها، بدأت تتخلق إمكانية عمل استمارة استبيان من نوع خاص يشارك المبحوثون أنفسهم - من داخل عالمهم الثقافي الخاص - في تصميمها وتشكيلها في سياق هذه العلاقة التحاورية الجديدة بينهم وبين ذلك العالم الثقافي «الدخيل» الذي يمثله فريق الباحثين وفي هذا الإطار تصبح الاستمارة في حد ذاتها منتَجًا كيفيًّا «داخليًّا» لهذه العلاقة التحاورية الممتدة.

وهكذا فقد أثارت هذه الإمكانية الجديدة اهتمام ذلك الاتجاه الفكري والمنهجي المعارض (منهج الحوار الثقافي والإنساني الخلاق)، ودفعته إلى إعادة النظر في موقف المعارضة المبدئية لاستخدام استمارة الاستبيان كأداة بحثية. وأصبح الطريق ممهدًا بالتالي أمام ذلك الحل الوسط الذي يهدف إلى تحويل استمارة الاستبيان التقليدية من أداة قياس كَمية خارجية في سياق علاقة لا شخصية ولا تحاورية «عن بعد» مع عالم المبحوثين إلى أداة قياس «وحوار» كيفية داخلية في سياق علاقة شخصية تحاورية «عن قرب» مع عالم المبحوثين.

وهكذا بدأ العمل في تصميم هذه الاستمارة غير التقليدية التي تحمل سمات الاتجاهين الفكريين والمنهجين المتعارضين معًا، والتي تحمل أيضًا بصمات العالَمين الثقافيين المتواجهين والمتحاورين، عالَم الباحثين سكان «مصر الجديدة»[١١] وعالم المبحوثين من قاطني «المساكن الشعبية»

(١١) تصادف أن أعضاء الفريق البحثي الثلاثة هم من سكان حي مصر الجديدة. =

بحي إسكان محيي.

وظل جزءٌ أساسيٌّ من هذه الاستمارة مقررًا بمنطق وعقلية الاتجاه المنهجي الأول، أي مقررًا بمنطق العقلية الكمية الخارجية التي تحاول ضبط وإخضاع الظاهرة عن بعد ومن الخارج. فأسئلة الاستمارة من (١) إلى (٩) التي تمثل مجموعة من الأسئلة التقليدية التي تحاول قياس بعض الملامح «الكمية الخارجية» للمبحوثين مثلاً (السن/ المهنة الأساسية/ الحالة التعليمية/ الحالة الاجتماعية/ . . .)، تبدو وكأنها قد قُررت بأكملها داخل العالم الثقافي للباحثين وباستخدام مفاهيم وصياغات ورموز نسق الخبرة الفنية والعلمية «الكمي الخارجي»، وبدت مساهمة العالم الثقافي للمبحوثين في صياغة هذا الجزء محدودة للغاية، باعتباره جزءًا فنيًا «يلزم تركه لصياغة» الخبراء والمتخصصين.

ومع ذلك وبرغم سيادة الملامح الكمية الخارجية «اللاتحاورية» المنحازة للاتجاه المنهجي الأول في هذا الجزء من الاستمارة، فيمكن ملاحظة أن بعض الملامح الكيفية الداخلية «التحاورية» المنحازة للاتجاه المنهجي المعارض والتي تعبر عن التمايز الكيفي الداخلي لعالم المبحوثين قد نجحت في «التسرب» إليه. فتظهر مثلاً في صياغة السؤال رقم (٢) عن المهنة الأساسية بعضُ الصياغات «الداخلية» التي فرضها العالم الثقافي الخاص للمبحوثين في إطار مواجهته وتحاوره مع العالم الثقافي الدخيل للباحثين، مثل (صاحب ورشة/ صنايعي/ موظف حكومة. . .) وأيضًا في صياغة السؤال رقم (٩) عن الموطن الأصلي يبدو إصرار المبحوثين على فرض صياغتهم الداخلية لوصف «المهجَّرين» بدلاً من الاكتفاء بذكر «مدن القناة» كموطن أصلي، وذلك تعبيرًا عن رغبتهم في التمييز الثقافي والاجتماعي لتلك «الكتلة الثقافية» المغايرة التي اقتحمت عالمهم الثقافي الخاص، وأثارت بوجودها منذ ١٩٦٧ عديدًا من التوترات

= ويلاحظ أن حي مصر الجديدة بكل ملامحه الفيزيقية والثقافية والاجتماعية و«الطبقية» يمثل بالنسبة لسكان المساكن الشعبية بحي إسكان محيي، رمزًا مجسدًا للأحياء الراقية التي يتطلعون إليها بإعجاب أحيانًا، وبشيء من الحسد والإحساس الدفين بالظلم في كثير من الأحيان.

والتحديات الاجتماعية والثقافية.

وفي هذا السياق نفسه يبدو السؤال رقم (٨) الذي يرصد جدول أو «مصفوفة» السن/ الحالة التعليمية/ استمرارية التعليم/ نوع المدرسة/ حالة العمل للأبناء، بدرجة تعقيده وتشابكه الملحوظ، «متعاليًا» على عقلية ونمط تفكير المبحوثين، ومتحيزًا بالتالي لعقلية الضبط والقياس «عن بعد» ومن «الخارج». وبالمثل تبدو الأسئلة من (٥٠) إلى (٦٥) متأثرة إلى حد كبير بالعقلية الكمية الرقمية والحسابية للباحثين، وبعيدة تمامًا عن أنماط التفكير السائدة داخل العالم الثقافي للمبحوثين. فهي تطلب من المبحوث تحويل «الكيف الداخلي» لعلاقاته الاجتماعية والإنسانية مع جيرانه إلى «كم خارجي» من الإحصاءات وسلسلة من الأرقام التي ترصد عدد العائلات التي يعرفها المبحوث من المدخل نفسه ومن "البُلُوك" ومن المربع السكني قبل تجربة المساعدة الذاتية وبعدها. وتبدو استجابات المبحوثين في هذا الجزء عبارة عن محاولة للفكاك من منطق هذه العقلية الكمية الغريبة عنهم. فبدلاً من الإجابة في صورة رقمية وكمية محددة وصارمة كما يريد واضع السؤال، لجأ عديد منهم إلى تقديم استجابات وصفية غير محدَّدة مثل (كلهم/ معظمهم/ شوية/ شوية صغيرة/ كثير/ يعني/ . . .) وفي حالات كثيرة تجاهل المبحوث تمامًا هذه المجموعة من الأسئلة الكمية الخارجية وتحاشى الإجابة عنها تعبيرًا عن عدم فهمه وربما عن رفضه، وعدم قبوله لمنطق تلك العقلية الكمية الرقمية التي يحاول الباحث فرضها عليه «قسرًا».

ومن ناحية أُخرى فإن الأجزاء الأُخرى من الاستمارة التي قام المبحوثون بدور رئيسي في تشكيلها وصياغتها في لغتهم المحلية المميزة والتي استجاب فيها الباحثون إلى ضغوط العالم الثقافي الخاص بالمبحوثين في محاولته لفرض تحيزاته الفكرية والثقافية على العالم الثقافي «الدخيل» الذي يواجهه من خلال الفريق البحثي، حققت اقترابًا متزايدًا من الملامح الكيفية الداخلية للظاهرة، وعكست بالتالي بشكل واضح تأثيرات وتحيزات الاتجاه المنهجي الثاني (منهج الحوار الثقافي والإنساني الخلاق). ومما يؤكد نجاح هذه الأجزاء الكيفية التحاورية من الاستمارة في الاقتراب إلى حد كبير من العالم الداخلي للمبحوثين، أن تفاعل المبحوثين معها

والاستجابات التي استثارتها لديهم كانت حية ومتدفقة وتتسم بالحماس والحرارة، فعلى سبيل المثال فإن السؤال رقم (٣٢) الذي يسألهم عن مشاعرهم تجاه مشكلة المجاري المزمنة في المنطقة ونوع الأضرار التي سببتها لهم، يبدو وقد لمس وترًا حيًا وقويًا داخلهم. وتعبر إجابات بعض المبحوثين عن هذا السؤال عن إحساس قوي بالانفعال والتوحد الحماسي مع الصياغات التي شارك عدد منهم في وضعها. ونرى مثالاً حيًا لذلك في استمارة ١ مع الرواد من منطقة الغرفة الواحدة لمجتمع البحث (استمارة رقم ٧/ ١):

٣٢ ـ وإيه الأضرار اللي حصلتلك بسبب مشكلة المجاري؟

«يمكن اختيار أكثر من إجابة»

(صيغة السؤال)	(استجابة المبحوث)
ـ كنت باتعكنن عالصبح لما أصحى وأشوف المنظر	(ويمكن ارجع إلى البيت. . .)
ـ كنت ما اقدرش أطلع أقف في البلكونة	(نعم)
ـ كان المنظر بيأكد الفكرة السيئة اللي واخداها الناس عن المساكن الشعبية وسكانها.	(نعم/ يقولون إننا سكان المستنقعات)
ـ كانت الأولاد ما تقدرش تلعب في الشارع	(نعم ومين يرضى أن أولاده تمرض)
ـ كنت بنكسف لما ييجي حد يزورني	(نعم حاجة تكسف)
ـ كان فيه ناس صحابنا ما بيرضوش ييجوا يزورونا بسبب طفح المجاري	(أكبر صح)
ـ كان التاكسي ما بيرضاش يدخل المنطقة	(نعم)

ـ كنت مش حاسس أني بني آدم وأنا عايش وسط البرك والطفح والناموس	(أقول إيه أكثر من كده)
ـ كنت ما أقدرش أفتح الشبابيك من الريحة والناموس	(ولا باب الشقة)
ـ كنت باهرب من البيت يوم الإجازة	(والله صح)
ـ أضرار أُخرى تذكر...	(إننا نرجو النظر في مجاري المسكن)

وبالمثل نجد مثالاً آخر لهذا التفاعل الحي من نفس هذه الاستمارة في السؤال رقم (٣٥/أ) عن الأسباب التي جعلت المبحوث يساهم في محاولة إصلاح مشكلة المجاري:

(٣٥ ـ أ) إيه اللي خلاك تساهم؟

(صيغة السؤال)	**(استجابة المبحوث)**
ـ المسؤولين ما عملوش حاجة فكان لازم نتصرف.	(نعم)
ـ لقيت الكل نزلوا فنزلت أشتغل معاهم	(نعم)
ـ كان نفسي المنطقة تنظف عشاني وعشان أولادي	(نعم ونعم وعشان الناس)
ـ كان نفسي نغير فكرة الناس اللي حوالينا عن المنطقة بتاعتنا.	(يسلام نفسي)
ـ مش معقول الحكومة تعمل لنا كل حاجة لازم احنا نساعد نفسنا	(ما احنا دائمًا بنعمل كل حاجة وفين الحكومة)

وبالمثل فإن الأسئلة الأُخرى الخاصة بملامح تجربة المساعدة الذاتية، وأسباب دخولهم فيها، وأيضًا عن تطلعاتهم للمستقبل بالنسبة للمنطقة، والتي قام المبحوثون أيضًا بدور رئيسي في صياغتها وتشكيلها بشروطهم

obeikan.com

الخاصة وفي لغتهم المميزة، تمثل كلها أسئلة كيفية داخلية صيغت من داخل الظاهرة في سياق الفهم المتعاطف للمبحوثين وللظاهرة، وفي إطار علاقة التحاور الشخصي عن قرب معهم. وبالتالي فقد أثارت لدى المبحوثين حماسًا واضحًا للإجابة عنها، وأيضًا استمتاعًا بهذه الإجابة. فقد وجد المبحوثون فيها ملامح حقيقية من حياتهم ومعاناتهم وأحلامهم للمستقبل، كما مثلت أيضًا تعبيرًا حيًا عن عالم المعاني الداخلية التي اختزنوها طويلاً، والتي ربما لم ينجحوا في التعبير عنها من قبل بمثل هذا الوضوح والاستفاضة. وهكذا يمكن القول بأن هذا النوع من الأسئلة الكيفية الداخلية يمثل فرصة لإطلاق عالم المعاني والانفعالات والتطلعات الحبيسة في صدور المبحوثين، والتي لم يُتِحْ لهم الواقع الاجتماعي المُعاش فرصة التعبير عنها وإطلاقها من قبل، وهو يساعدهم بالتالي على اكتشاف وتأكيد ملامح تجربتهم الحية المشتركة وسِمات هويَّتهم الجَماعية المميزة، والتي لم تحصل بعد على اعتراف حقيقي من قِبل العالم الخارجي. مما يمثل خروجًا بالمبحوثين وانتشالاً لهم من «سمة الصمت» Theme of Silence (على حد تعبير باولو فريري)[١٢] المفروضة عليهم من قِبل العالم الخارجي الذي لم يُتِحْ سوى وجود هش ومزعزع على هامش ثقافته المهيمنة وفي قاع بنائه الاجتماعي والاقتصادي المسيطر. وبذلك يمكن لاستمارات البحث من هذا النوع الكيفي الداخلي التحاوري أن تضيف إلى أبعاد دورها التقليدي البحثي والقياسي في أيدي فريق الباحثين، دورًا اجتماعيًا وثقافيًا ونفسيًا وتنمويًا جديدًا ومميِّزًا في أيدي مجتمع المبحوثين، بكشف وإبراز وتأكيد ملامح «الذات الجماعية» لهم[١٣].

وفي النهاية يلزم التنويه بأن الاختلافات والتمايزات داخل الفريق البحثي في تجربة حي إسكان محيي لم تقتصر على مستوى التحيزات

---

(١٢) انظر: P. Freire, op. cit., Chap. 30.

(١٣) انظر: C. Nelson & S. Arafa, Problems and Prospects of Participatory Action Research: An Illustration from an Egyptian Rural Community, 5th. World Congress of International Sociological Association, p. 19.

الفكرية والمنهجية الأساسية. ففي سياق علاقة التفاعل الإنساني المكثف بين الفريق ومجتمع المبحوثين، بدت بعض التمايزات الشخصية المرتبطة بالخبرات الإنسانية المختلفة لأعضاء الفريق. ففي أثناء تحليل السمات والملامح العامة لقادة تجربة المساعدة الذاتية، ومحاولة إبراز العناصر الأساسية المحركة لهم كشخصيات «تنموية»[١٤] قادت عملية التغيُّر

---

(١٤) تتميز الشخصية «التنموية» في تعريفنا المستمَد من ملاحظة السمات الشخصية المشتركة لرواد تجربة المساعدة الذاتية بحي إسكان محيي ـ التي ساهمت في صقله وإثرائه مناقشات مستفيضة مع د. سلمى جلال عضو فريق البحث ـ تتميَّز بمعظم ملامح شخصية المنظم الرأسمالي كما تقدمه نظريات التحديث الغربية (دينامية شخصيةٍ عالية ـ رغبة شديدة في الإنجاز ـ قدرة على الإبداع ـ قدرة على ضبط النفس ـ قدرة على التنظيم وضبط النفس ـ قدرة على القيادة).

ومع ذلك فالشخصية التنموية لا تركز جهدها الرئيسي على إحداث تراكم مادي في إطارٍ فرديٍّ متحرِّرٍ من كل قيود أخلاقية واجتماعية و«قِيَمية»، مرتبطة بالجماعة مما يتجسَّد في صورة «الإنسان الاقتصادي» الحر Homo Economicus الذي انطلق من عقاله في ظل الحضارة الرأسمالية الغربية؛ وإنما هي تهتم بدرجة أكبر بإحداث تراكم «معنويّ» يتجاوز قوانين التراكم المادي الرأسمالي ويرتبط من ناحية باعتناق الشخصية التنموية وتجسيدها لقيَم إنسانية مطلقة (الحب/ التضحية/ الشرف/ الوطنية/ إنكار الذات/ احترام الإنسان)، ويرتبط من ناحية أُخرى أيضًا بانتماء الشخصية التنموية «عضويًا» لجماعة ثقافية محددة تندمج فيها وتدافع عنها وتسعى إلى تقدمها وتجددها. وتتشكل قوانين هذا التراكم المعنوي في سياق العلاقة الشخصية الحميمة بالآخرين والانتماء العضوي الفعال للجماعة الثقافية المحددة، وذلك من خلال استخدام الشخصية التنموية لقدراتها الدينامية والإبداعية والقيادية في حشد وتعظيم رصيدها المعنوي لدى الآخرين، وأيضًا في بناء وتصعيد دورها الثقافي العضوي داخل الجماعة الثقافية التي تنتمي إليها. فالشخصية التنموية قادرة على تجاوز إطار وجودها الفردي المحدود من خلال الاستغراق في خدمة الآخرين ومساعدتهم وقيادتهم نحو قيم ومفاهيم وأنماط سلوك أكثر رقيًا وتقدمًا تتوحد حولها وتتجدد من خلالها الجماعة الثقافية الحية. وفي حالة تواجد عنصر الإيمان الديني والعلاقة الشخصية «الحية» مع الله كمكوّن أساسي من مكونات الشخصية التنموية، يأخذ هذا التراكم المعنوي أبعادًا «أُخروية» Other-Worldly تتمثل في الرصيد المتزايد الذي يحققه «المؤمن» (المسلم أو المسيحي) لدى الله من خلال «العمل الصالح» الذي يقوم به في خدمة الآخرين، وتتمثل أيضًا في الثقة المؤكدة بحتمية الثواب في الدنيا والآخرة، مهما =

الاجتماعي التنموي داخل ذلك المجتمع المحلي، نجد أن كل عضو من أعضاء الفريق الثلاثة قد اتجه إلى التعاطف مع سِمَةٍ مميزة من السِّمات الشخصية المشتركة لقادة التجربة، وذلك لتأكيد اقتناعه و «إيمانه المسبق» بأهمية تلك السمة وأولويتها في تكوين الشخصية التنموية. فأحد أعضاء الفريق كان «يؤمن» بأهمية سِمة «القدرة المالية» في تدعيم دور المَنمي والمغيِّر الاجتماعي، بينما انحاز الآخر إلى سِمة «الاستقلال والاعتماد على النفس»، وتعاطف الثالث مع سِمة «العلاقة الشخصية مع الله» كعنصر محرك في شخصية المنمي والمغيِّر الاجتماعي. وهكذا كان كل منهم يبحث باستمرار في ملامح قادة التجربة عن مدى وجود تلك السمة التي استنبطها وتعاطف معها وذلك لتأكيد وجهة نظره وتحيزه المسبق تجاهها(١٥).

= طال انتظاره، مما يمُد «المؤمن التنموي» برصيد هائل ومتجدد من الطاقة النفسية والجسمانية المستنفرة للعطاء باستمرار.

ويلاحظ أن «المكون الديني» يمثِّل إحدى السمات الهامة المميزة لعدد كبير من شخصيات قادة التجربة. وهو ما دفعنا إلى استقصاء علاقة هذا المكون بالسمات العامة للشخصية التنموية. وكما يعبر عن ذلك أحد قادة التجربة:

«السلوك بتاعنا اللي احنا عملناه ده... لو خدناه من هذه الزاوية... ده عمل إسلامي بحت وديني... الدين اللي بيحض على كده... لو فيه عندك أذى في الطريق... كنت تميط الأذى عن الطريق... حديث شريف... ده سلوك... الدين سلوك مش مظهر...».

(١٥) تبلورت هذه النقطة في سياق إحدى المناقشات بين كاتب الورقة ود. سلمى جلال عضو فريق البحث. فقد اتفقت آراؤهما على وجود تلك النزعة للتوحد المتعاطف مع سمة معينة من السمات الشخصية «التنموية» المميزة لقادة تجربة المساعدة الذاتية، وذلك عند كل من أعضاء الفريق البحثي الثلاثة. ويمكن تفسير الظاهرة بأن كُلًّا من أعضاء الفريق الثلاثة يحمل في بناء شخصيته الإنسانية الطبيعية بعض المكونات التنموية الواضحة، وهو بالضرورة ما جعل ممكنًا الجمع بينهم في عمل بحثي مشترك برغم اختلاف مواقفهم الفكرية والمنهجية الأساسية. ويبدو أن المكون التنموي المختلف الذي تمحورت حوله الشخصية الإنسانية الطبيعية لكل منهم، كان هو نفسه العنصر الأساسي والسمة المميزة التي بحثت عنها وتوحدت بها شخصية «الباحث» عند كل منهم أثناء «فحصه» لشخصيات قادة التجربة، كشخصيات تنموية يرى «نفسه» فيها، ويدلل على صحة تحيزاته المسبقة من خلالها. وهكذا توحد أحد أعضاء الفريق مع سمة =

ومن الواضح أن ذلك التمايز الشخصي لدى أعضاء الفريق البحثي قد ساعد بالضرورة في تعميق وإثراء تحليلهم وفهمهم للسمات الشخصية والأبعاد النفسية لقادة تجربة المساعدة الذاتية بحي إسكان محيي.

٣ ـ المواجهة الثقافية/الطبقية بين عالم الباحثين وعالم المبحوثين في تجربة حي إسكان محيي وآليات «الحوار/القسر» بينهما.

لم تقم تجربة حي إسكان محيي البحثية والتنموية[١٦] ـ كما أوضحنا

= «المنمِّي ذي القدرة التمويلية»، بينما توحد الآخر مع سِمَة «المنمِّي ذي الشخصية المستقلة المعتمدة على الذات والقادرة على الإبداع» واتجه الثالث إلى التوحد مع سِمَة «المنمِّي ذي العلاقة الشخصية الحية مع الله». ومع ذلك فهناك سِمَات أخرى مميزة وواضحة لدى قادة التجربة لم يستطع أعضاء الفريق البحثي التوحد بها لتصادمها مع قيَم عالمهم الثقافي و«الطبقي» المغاير. فلم يستطع أحد منهم على سبيل المثال أن يمارس التوحد المتعاطف مع سِمَة «القدرة على ممارسة العنف اللفظي والجسدي» في مواجهة العناصر الثقافية المقاومة للتغيير والمناوئة للتجربة.

(١٦) يتمثل البعد «التنموي» لهذه التجربة البحثية في التغيرات الإيجابية المادية والروحية، المقصودة وغير المقصودة، التي أثارها الفريق البحثي داخل مجتمع البحث، وذلك بوجوده، وممارساته وأيضًا بضغوطه و«مقايضاته» مع قيادات هذا المجتمع. وقد تمثلت هذه التغيرات الإيجابية داخل مجتمع البحث، في دفع وتنشيط بعض عوامل التغير الاجتماعي التنموي التي أثارتها أساسًا تجربة إنشاء الحدائق بالجهود الذاتية. فلقاءات الحوار «المواجِهة» مع الفريق البحثي، المطوَّلة والمستمرة، قد ساعدت على إعادة الاتصالات المكثفة بين قيادات التجربة ربما بعد فترة من التوقف والتراخي. وأيضًا فإن هذه اللقاءات قد ساعدت على إعادة الحماس إلى كثير من قيادات التجربة الذين ربما قد فتر حماسهم نتيجة لافتقادهم لأي تشجيع أو مساندة أو اعتراف واضح من قبل العالم الخارجي إلى جانب أهداف وطموحات جماعية جديدة ـ تتجاوز مجرد إنشاء عدد من «حدائق الزينة» ـ يتوحدون حولها ويعبئون قدراتهم الذاتية في مواجهتها. فمن المؤكد أن هذه اللقاءات المطولة والحوارات الجادة مع ممثلي العالم الخارجي والأجهزة الحكومية المسؤولة ـ كما بدا الفريق البحثي في أعين المبحوثين ـ قد أسهمت في استثارة وبلورة مزيد من تطلعاتهم وطموحاتهم الجماعية «التنموية» التي تعبر عنها إحدى القيادات البارزة للتجربة: «احنا وصلنا لمستوى علاقات... مستوى فاضل من العلاقات... يا ترى عشان نستمر على هذا المستوى أو ننميه محتاجين إيه؟... مثلاً نادي اجتماعي... محتاجين جمعية معينة تضمّنا... يعني حاجات زي كدة... بحيث إنا نحافظ على هذا «الليفل» (أي المستوى: level) يعني وصلنا =

من قبل ـ على أية أسس وطقوس منهجية مقننة ومنضبطة، وإنما هي قد بدأت وانتهت في إطار حوار طويل وممتد داخل سلسلة من جلسات المواجهة[١٧] و «الصراع» بين عالمين ثقافيين متمايزين يختلفان في لغتهما

= لليفل معين من العلاقات مش عاوزين ننزل تاني... عاوزين نحافظ عليه... نادي طفل صغير... حديقة أطفال... حتى على الأقل الأمهات تجتمع كل فترة... الآباء ممكن يجتمعوا في النادي الاجتماعي... ينشا برضه... نكون مجلس إدارة... في دماغي برضه... المنطقة القبلية دي... يبقى احنا واصلنا العمل وطورناه وبنحافظ عليه...» ومع ذلك فيهمنا أن نؤكد أن التقييم الحقيقي لهذه التجربة البحثية لا يمكن استيضاحه وحصره بشكل كامل ودقيق قبل مرور فترة زمنية كافية تسمح لنا بمراجعة كل الآثار الإيجابية والسلبية لهذه التجربة البحثية على مجتمع المبحوثين؛ فعلى سبيل المثال يهمنا تقييم الآثار السلبية للتركيز الإعلامي على «الأفراد» من قادة تجربة المساعدة الذاتية وتضخيم دورهم القيادي «الفردي» على حساب إعطاء الوزن الحقيقي للعمل الجَماعي التنموي الذي دفعته بكل طاقاتها «جماهير» هذا المجتمع المحلي.

(١٧) استغرق ذلك الحوار بين الفريق البحثي ومجتمع المبحوثين ستًّا وعشرين جلسة جرت في الفترة من ١٦/ ١١/ ١٩٨١ إلى ١٨/ ١١/ ١٩٨٢. وقد استغرقت الجلسة الواحدة حوالي ثلاث ساعات ونصف في المتوسط وكان عدد الحاضرين من جانب مجتمع المبحوثين في كل جلسة يتراوح ما بين خمسة إلى عشرة أشخاص. وذلك في مواجهة أعضاء الفريق البحثي الثلاثة، بالإضافة إلى ممثل الإدارة العامة للحدائق بمحافظة القاهرة ـ المهندس عبد المنعم مصطفى ـ الذي حضر جانبًا كبيرًا من هذه الجلسات بناء على ترتيب سابق من السيدة رئيسة الفريق. وسوف يزيد متوسط عدد الحاضرين من جانب مجتمع المبحوثين في الجلسة الواحدة إذا أدخلنا في الاعتبار أنه في كثير من الأحيان كانت الجلسة تظل منعقدة بينما يتغير المتحدثون الرئيسيون بها فيغادرها بعضهم وينضم إليها بعضهم الآخر دون أن ينقطع الحوار أو يفقد تسلسله، وذلك مع استمرار بعض العناصر الرئيسية من قادة تجربة المساعدة الذاتية كأطراف ثابتة مشاركة في الحوار طوال الجلسة.

وانعقدت معظم هذه الجلسات (١٦ جلسة) في مساكن قادة تجربة المساعدة الذاتية من أهالي حي إسكان محيي القبلي، أي داخل إطار العالم الثقافي الخاص بالمبحوثين. واتخذت هذه الجلسات شكل التجمع الدائري في غرفة الاستقبال (الصالون) حيث توضع آلة التسجيل عادة في المنتصف بالقرب من السيدة رئيسة فريق البحث، التي كانت تقود الحوار وتوجهه في كل جلسة. حيث إنها كانت تمثل محور الاهتمام الرئيسي للمبحوثين وذلك على أساس خبرتها المتخصصة في =

وأبجديتهما الثقافية، وأيضًا في المصالح والأهداف التي يتبناها كل منهما. فعلى جانب يقف الفريق البحثي، بعالمه الثقافي و«الطبقي» المميز (عالم ثقافة الطبقة الوسطى «المتفرنجة» Westernised)[١٨]، وبطموحه المِهني الذي يدفعه نحو استخدام هذه الجلسات «لِقنْص» مادة بحثية وعلمية مناسبة تصلح «للتسويق» وللتصدير إلى عالم الصفوة العلمية والأكاديمية بحيث يتم تحويلها إلى رصيد علمي وأدبي يدَعِّم مكانة أعضاء الفريق داخل هذه الصفوة، وأيضًا ببعض القيم «التنموية»[١٩] التي تجمع بين أعضاء

= موضوع الحدائق ـ العنصر الرئيسي في تجربة المساعدة الذاتية ـ وأيضًا لبروز دورها كوسيط محتمل بين مجتمع البحث والأجهزة الحكومية بحكم صلة القرابة الزوجية التي تجمعها بالسيد مدير عام الحدائق بمحافظة القاهرة. وهكذا كانت رئيسة الفريق البحثي مؤهلة للقيام بدور «المحاور» الرئيسي ـ وأيضًا «المقايض» الرئيسي ـ مع مجتمع المبحوثين. وإلى جانب هذه الجلسات التي جرت داخل إطار العالم الثقافي الخاص بالمبحوثين، فقد نجح فريق البحث في «استدراج» بعض قادة تجربة المساعدة الذاتية خارج عالمهم الثقافي المحلي. وعقدوا معهم بعض جلسات الحوار (٥ جلسات) داخل إطار ـ وعلى أرضية ـ العالم الثقافي «الطبقي» المغاير الخاص بالباحثين.

(١٨) يأتي أعضاء الفريق البحثي من العالم الثقافي الخاص بالطبقة الوسطى المتفرنجة. وعلى وجه التحديد العالم الثقافي/ الطبقي لحي مصر الجديدة هذا العالم الثقافي/ الطبقي الذي يبدو قريبًا إلى حد كبير من ملامح المجتمع الحضري كما تقدمه ـ في «نمطه المثالي» ـ كتب علم الاجتماع الغربي فهو يقوم أصلاً على علاقات المصلحة والتعاقد، وعلى تصعيد الروح الفردية، وعلى التمسك بالخصوصية إلى درجة العزلة والانفصال المكاني والاجتماعي عن الآخرين. وهو يتميز أيضًا بضعف الرِّباط الوجداني بين الإنسان والبيئة المكانية. فالإنسان المنسحب اجتماعيًا داخل أسرته النووية، والمعزول نفسيًا ومكانيًا داخل مسكنه المنغلق إلى الداخل والمنفصل عن الخارج. يفقد تدريجيًا إحساسه بالتوحد والارتباط والتواصل مع البيئة المكانية الخارجية، ويصبح بالتالي أسيرًا لعالمه المكاني/ الاجتماعي الفردي المنعزل والقادر على الانفصال والحراك إلى بيئة مكانية/ اجتماعية أُخرى بغير أن يفقد شيئًا أساسيًا من مقومات وجوده المادية والروحية.

(١٩) تلك القيم التي تدعو الفرد للخروج من دائرة طموحه الفردي الخاص المنغلق على الذات وتجعله راغبًا وقادرًا على التفهم. وعلى التواصل مع والتوحد باحتياجات الآخرين كأفراد وكجماعات (خاصة الطبقات الدنيا منهم) بحيث يسهم قدر طاقاته في استثارة ودفع وتنشيط حركة التطور والتجدد والتنمية لدى هؤلاء =

الفريق، وتجعلهم متحمسين لخوض هذه التجربة البحثية غير التقليدية وتجعلهم أيضًا مستعدين بقدْر معين لتجاوز طموحهم المهني والأكاديمي الفردي «الضيق» إلى بعض الطموحات الشخصية والجَماعية في مجال العمل الاجتماعي التنموي التي تثيرها لديهم هذه التجربة.

بينما يقف على الجانب الآخر مجتمع المبحوثين من قاطني «المساكن الشعبية» بحي إسكان محيي القبلي، بعالمهم الثقافي الخاص الأقرب إلى عالم «ثقافة الحارة»[٢٠] والذي يعبر عنه أحدهم في سياق تأكيده على الفروق

= الآخرين. في إطار من الحوار الإنساني الحي والخلاق معهم. ويبدو أن وجود مثل هذه القيم التنموية كمكونات أساسية في الشخصية الإنسانية الطبيعية للباحث في ميدان العلوم الاجتماعية، يساعده على التحرر قدر الإمكان من موقف «التعالي الإكلينيكي»... «المحايد وجدانيًا» تجاه «موضوعات» بحثه في إطار علاقة «أنا/ الشيء» القسرية التحكمية ويدفعه للاقتراب من موقف التفهم المتعاطف «المشحون وجدانيًا» تجاه الظاهرة الاجتماعية المبحوثة وتجاه «الذوات» الإنسانية المتضمَّنة داخلها التي يحاول الباحث التحاور والتفاعل معها في إطار علاقة «أنا/ الآخر» التحاورية التنموية.

(٢٠) ظهر للفريق البحثي بعد فترة معينة من التفاعل مع مجتمع البحث، أن مفهوم «ثقافة الحارة» الذي قدمته نوال المسيري من خلال دراستها لأحد حواري القاهرة، يمكن أن يكون مفتاحًا مناسبًا لفهم عناصر الاختلاف الرئيسية بين العالم الثقافي للفريق والعالَم الثقافي للمبحوثين (انظر نوال المسيري، **العلاقات الأسرية في حواري القاهرة**، مرجع سابق). فالعالَم الثقافي المحلي الذي يعيش داخله المبحوثون، يبدو أقرب إلى نمط الحياة في الأحياء الشعبية المصرية بتقاليدها الجماعية المبنية على شبكة من العلاقات الشخصية الحميمة، وعلى تغليب لتلك الروح الجَماعية على التمسك بالخصوصية الفردية المنعزلة، وأيضًا على الانفتاح والتواصل والترابط العاطفي والوجداني بين الإنسان والبيئة المكانية المحيطة.

فالإنسان في البيئة الشعبية المصرية لا ينسحب داخل أسرته النووية المنعزلة بل هو يعتبر «الحارة» ككل هي أسرته الحقيقية (ذكر أحد المبحوثين في سياق حديثه عن ذكرياته عن الحي الشعبي الذي كان يقطنه قبل انتقاله إلى إسكان محيي. أنه وهو طفل كان ينادي بعض السيدات من الجيران داخل الحارة التي نشأ بها بلقب «ماما»). وفي الحارة لا ينغلق المسكن إلى الداخل فحجرات المسكن هي للنوم فقط أما باقي وظائف المعيشة فتمارس في الحارة ذاتها. فالحارة هي امتداد للمسكن الداخلي، وهي بالتالي غير متاحة لتواجد الغرباء الذين عندما يدخلونها يسبحون داخل «المسكن» بمفهومه الأوسع من مفهوم «الشقة» Apartment =

الأساسية التي تميزهم عن الجناح البحري الأقرب إلى ثقافة الطبقة الوسطى المتفرنجة، بقوله:

«... هنا... كلنا بلدي...»

وفي موضع آخر:

«... عندنا مستوى شعبي... بمعنى أن ممكن يقعدوا على البسطة يدردشوا مع بعض... هناك لاء... عندنا ممكن يجيبوا فراخ وبط ويربوه... عندهم يجيبوا من الجمعية على طول...».

وبإحساسهم المكثف «بالوصمة الاجتماعية» و«بالدونية» الثقافية والطبقية في مواجهة العالم الخارجي المسيطر الذي كانت رغبتهم في تغيير صورتهم إزائه وتعديل علاقات القوة معه هي أحد الأسباب الملحة لاندفاعهم نحو تجربة إنشاء الحدائق بالجهود الذاتية:

«... شوف بأه أهم حاجة تغير بعض المفاهيم السابقة... يعني كان زمان مفهوم المساكن... مفهوم عبارة عن مجموعة من الغجر واللمامة... جايين من مناطق مختلفة... ودول لامينهم في المساكن الشعبية لأنهم مشردين أو مجرمين... إزاي بأه الفكرة دي اتغيرت؟... أصبحوا بتوع العمارات بيحسدونا... الناس اللي حوالينا بتوع العمارات... بيقولوا يا ريت نعمل زيكم... بعد ما كنا احنا نعتبر البقعة اللي كنا ملوثينهم... أصبحنا نشرفهم...».

وأخيرًا بمعاناتهم الطويلة من الشعور بالظلم والمرارة تجاه الأجهزة

= المنغلقة إلى الداخل، والتي تمثل جزءًا من التحيزات الثقافية للطبقة الوسطى المتفرنجة. وكما يتذكر أحد المبحوثين عن الحي الشعبي الذي كان يقطنه.

«... الحي كله كان له باب... وجوّه البيبان كلها تبقى مفتوحة على بعض».

ومع ذلك فمن المهم توضيح أن بعض قادة تجربة المساعدة الذاتية كان لهم موقف نقدي من نموذج ثقافة الحارة وأن النموذج الثقافي «المثالي» في نظرهم هو ما يجمع بين إيجابيات عالَم ثقافة الحارة التقليدي «وامتيازات» عالَم ثقافة الطبقة الوسطى المتفرنجة العصري. وفي كلمات أحدهم «أعتقد أن المساكن مثلاً جمعت بين مواصفات المجتمع العصري وإيجابيات الحي الشعبي فأصبحت هي مزيجًا».

الحكومية المسؤولة التي واجهتهم دائمًا بالغبن والاستبعاد والتجاهل وأيضًا بالتحيز لمصالح الفئات الاجتماعية الأُخرى الأقوى والأكثر نفوذًا:

«... ما احنا عملنا شيء مين اللي بيهده؟... مين؟... المسؤول اللي هوه ما بيقمش ويشوف الناس عملت إيه... صاحب العمارة زرع حاجة؟... وعلى حسابه؟... صاحب عمارة ١٥ دور زرع شجرة قدام عمارته؟... أبدا...

البلاط اللي قدامه عمله على حساب البلدية... ليه؟... ليه عمله؟... طب شوف يا مسؤول أنا عملت إيه... شجعني...».

ويؤكد ذلك تعليق إحدى المبحوثات تعبيرًا عن سعادتها و «امتنانها» لهذا الاهتمام المفاجئ من قِبَل ممثلي العالم الخارجي والأجهزة الحكومية:

«... احنا كويس اللي جينا على بال سيادتكم وجيتونا...».

وهم بالتالي يطمحون نحو استخدام هذه الجلسات واللقاءات المتاحة لاقتناص بعض التنازلات الهامة والمكاسب العاجلة من قِبَل ذلك العالم الخارجي المسيطر وتلك الأجهزة الحكومية التي تجاهلتهم طويلاً، وذلك باعتبار أن فريق البحث يمثل قناة اتصال جيدة وعنصر ضغط فعال للوصول إلى العالم الخارجي وإلى الأجهزة الحكومية المسؤولة. وإلى جانب الاحتياجات المادية العاجلة التي يرغبون في انتزاعها «حوارًا» أو «قسرًا» من الفريق البحثي استنادًا إلى فعالية اتصاله وتأثيره في الأجهزة الحكومية المسؤولة[٢١]:

---

(٢١) يبدو من سياق الحديث في جلسة الحوار الأول بين الفريق البحثي والمبحوثين، أن بعض هؤلاء المبحوثين من قادة تجربة المساعدة الذاتية كانوا على علم منذ البداية بصلة القرابة الزوجية بين رئيسة فريق البحث ـ د. وفاء عبد الله ـ والسيد مدير عام إدارة الحدائق بمحافظة القاهرة. وقد مثلت هذه الصلة القرابية عنصرًا أساسيًا من عناصر عملية «المقايضة» التي جرت ـ باستخدام كل ما توفر من أدوات «الحوار» و«القسر» ـ بين الفريق البحثي ومجتمع المبحوثين. وذلك على أساس أن مجتمع المبحوثين كان مستعدًا لتقديم كافة التسهيلات اللازمة لمساعدة الفريق البحثي على تحقيق أهدافه البحثية «والعلمية»، في مقابل أن يقوم الفريق =

«. . . احنا مطالبنا شأنها شأن أي مطالب. . . في متناول أي حد يعملها. . . فأول حاجة إزالة مقلب الزبالة الموجود. . . وعاوزين مقر الشرطة. . . ويكون فيه أمين شرطة. . . وتليفون للطوارئ. . . وهنا مجمَّع استهلاكي ومجمَّع أمن غذائي. . . جنبنا هنا. . . وتخيلي سيادتك ما بنقدرش نجيب منه شيكارة رز أو كيلو سمك. . . يعني نشوف ناس الصبح من ميدان الأفضل اللي هوه في شبرا بييجوا يأخذوا من هنا. . . فالناس دول عايزين رقابة. . . وعايزينكم تضموا صوتكم لصوتنا في حكاية الميه دي. . . لأن إحنا لما بنطلع الخرطوم نسقي الجنينة السكان بيقولوا لنا إحنا عاوزين ميه. . .».

فقد كان المبحوثون حريصين أيضًا على انتزاع بعض «المكاسب الأدبية» الهامة من اعتراف واضح وقبول غير متحفظ من قِبَل ذلك العالم الخارجي «يرد اعتبارهم» ويؤكد سمات التفرد والتميز والإبداع في تجربتهم الخاصة للمساعدة الذاتية. تلك التجربة التي تثير فخرهم واعتزازهم،

= بمساعدة مجتمع المبحوثين بشكل عملي وفعال على تحقيق جانب من احتياجاته المادية العاجلة. وقد ظهرت أول بنود عملية المقايضة في نهاية جلسة الحوار الأُولى متمثلة في الاتفاق على أن تتوسط السيدة رئيسة الفريق لدى الإدارة العامة للحدائق بمحافظة القاهرة لإحضار ثلاثة آلاف نبات أسوار تحتاجها حدائق الزينة التي أنشأها الأهالي، وذلك في مقابل ضمان حشد وتنظيم وتدبير مزيد من جلسات الحوار بين الفريق البحثي وأهالي المنطقة. وقد مهد للبدء في عملية «المقايضة» هذه دخول السيدة رئيسة الفريق إلى مجتمع البحث عن طريق المهندسة عَزَّة رشاد التي ساهمت بحكم منصبها كمديرة لحدائق شمال القاهرة في تجربة المساعدة الذاتية فهي قد قدمت المشورة الفنية للأهالي، وأمدّتهم بكمية كبيرة من نباتات الزينة، مما جعلها تحوز على ثقتهم وإعجابهم.

ويضاف إلى ذلك، أن حضور المهندس عبد المنعم مصطفى - مدير إدارة المشروعات بالإدارة العامة للحدائق بمحافظة القاهرة - لعدد كبير من جلسات الحوار كان يؤكد للمبحوثين مدى «جدية» و«قدرة» الفريق على تقديم خدمات ملموسة في مجال الحدائق بحكم الصلة المباشرة بالإدارة العامة للحدائق بالمحافظة، وأيضًا في باقي المجالات بحكم إمكانية التوسط في توصيل طلبات أهالي المنطقة وشكاويهم إلى الأجهزة الحكومية المحلية بالحي. مما جعل الطريق مفتوحًا أمام نمو وتصاعد عملية «المقايضة» بكل جوانبها من «حوار» و«قسر».

وتثير أيضًا تطلعاتهم نحو المطالبة بمكانة أفضل وأقل «هامشية» ودونية «داخل ذلك العالم المسيطر الذي لفظهم واستبعدهم طويلاً، والذي لم يتورع أحيانًا ـ في إطار لحظات المواجهة المحدودة والاهتمام العابر بشؤونهم ـ عن «إهانتهم» والتعريض بهم:

«... جالنا واحد من التليفزيون... وبقي قرفان يدخل الأوَض... وبعدين بيسألوه البرنامج حيطلع فين... قالهم في عالم الحيوان... طبعًا الواحد اتضايق... واحنا بنتعشم خطوتكم دي تنصف الناس...».

وفي سياق آخر:

«... لما عرفنا من المهندسة عزة أن ناسًا من معهد التخطيط... حسينا إنه فيه جدية وحاجة جديدة... «شور» يعني... وده اللي كنا بنتمناه من زمان... واحنا ربنا كرمنا بحضراتكم».

وفي موضع ثالث:

«... احنا أصلاً جايين من الدرب الأحمر والقلعة... يعني شفنا هناك مساكن كثيرة جدًا ممكن إنها تتحول تبقى جميلة... فالواحد عاوز يأخذ إيجابيات التجربة دي كلها... ونقولها للناس دي يعملوا زيها... نفسِنا المساكن الشعبية كلها تعمل زينا...».

وفي هذا الإطار، فقد مثَّلت آليات الحوار Dialogue/ القسر Coercion التي شارك في تخليقها وتشكيلها وتطويرها الباحثون والمبحوثون على حد سواء في سياق تلك المواجهة الثقافية/ الطبقية بينهما، مثَّلت الأداة البحثية والمنهجية الأساسية وأيضًا «النتيجة» النظرية/ التطبيقية الرئيسية لهذه التجربة البحثية المميزة. فالبحث لم يبدأ بأهداف بحثية محددة سلفًا، بل لقد كان الهدف الوحيد المعلن عنه والمتفق عليه من جانب أعضاء الفريق البحثي هو بدء الحوار والمواجهة بين هذين العالَمين الثقافيين والطبقيين المتمايزين والمتعارضين، مع ضمان اتصاله واستمراريته وجديته. على أن تأتي الممارسات البحثية وأيضًا الإجراءات التطبيقية والتنموية المحتملة في

سياق هذا الحوار المستمر المتصل كمنتَج «داخلي» له، وأيضًا كمساهمة مستمرة في تغذيته وفي دفعه وتطويره. وعلى ذلك فَقَدْ حاول كل طرف من الطرفين المتواجهين، و«المتصارعين»، أن يفرض على الطرف الآخر تبني أهداف ومصالح الطرف الأول، ولو على حساب تخلي الطرف الثاني - طوعًا أو كرهًا - عن جزء من أهدافه ومصالحه الأصلية أو تلك التي بلورها وطورها في سياق هذا «الحوار/ المواجهة». فالفريق البحثي كان يهمه أن يتبنى المبحوثون بعض أهدافه البحثية و«العلمية» التي بلورها وطورها في سياق الحوار/ المواجهة معهم، وبالدرجة الأُولى مشاركتهم في تصميم استمارة البحث وأيضًا في الإشراف على ملئها و«تدويرها».

برغم أن هذه الأهداف والإجراءات البحثية و «العلمية» قد تبدو لكثير من المبحوثين، بلغتها المتخصصة وإجراءاتها المعقدة، «طقوسًا» غير مفهومة وغير ذات جدوى، مغتربة تمامًا عن سياق اهتماماتهم واحتياجاتهم اليومية العاجلة، ومنفصلة أيضًا عن نسق المعاني الخاص بهم. وعلى الجانب الآخر، فمجتمع المبحوثين كان يهمه أن يتبنى الفريق البحثي داخل إطار عمله البحثي الميداني بعض الإجراءات التنفيذية والتطبيقية التي تواجه عددًا من الاحتياجات المادية والروحية الملحة للمبحوثين، مثل الإجراء الخاص بإنشاء حديقة جديدة لأطفال المنطقة في الأرض الفضاء عند مدخل الحي التي كانت تُستغل كمقلب للزبالة، ومستودعًا للعربات الخردة وأيضًا مرتعًا خصبًا للخارجين على القانون(*). وذلك على الرغم من أن هذا «الإجراء التنفيذي» لم يكن أصلاً ضمن الأهداف المعلنة للبحث، ولم يدخل ضمن خطة الباحثين إلا استجابة لضغوط المبحوثين المتزايدة عليهم، والتي وصلت إلى ذروتها بالتعطيل المتعمد لعملية ملء استمارات البحث وجمعها، تلك العملية ذاتها التي تعهد المبحوثون بتسهيلها، وبالإسراع في إنجازها في أقصر وقت ممكن.

(*) وهي بالتالي كانت تشوه الصورة الجمالية الجديدة للمنطقة، ومن ناحية أُخرى فقد كانت تؤكد الصورة الاجتماعية القديمة «المتدنية» لسكان المنطقة والتي سعوا من خلال تجربتهم الرائدة لإزالتها وتغييرها.

وهكذا فقد استخدم الطرفان في سبيل الوصول إلى أهدافهما التي تبلورت وتطورت في سياق الحوار/ المواجهة بينهما، كل الأساليب المتاحة لديهما من «حوار» و «قسر». فإلى جانب أساليب «التحاج» والتحاور بين طرفين متكافئين في القوة مستعديْن لممارسة التفهم المتبادل والاقتناع «العقلاني» الطوعي بحجج الخصم إذا بدت صحيحة وصادقة، وراغبين في التوصل إلى حلول وسط تستجيب لشروطهما وأهدافهما ومصالحهما بقدر متساو وتستند إلى تنازلات متبادلة مقدمة من الطرفين معًا، إلى ذلك فقد لجأ أيضًا كل طرف وفي اللحظات المواتية من عملية الحوار/ المواجهة إلى استخدام عناصر القوة والردع التي توفرت لديه[٢٢] والتي أهلته لممارسة ضغوط فعالة على الطرف الآخر إلى حد «لَيِّ ذراعه» وإرغامه ـ كرهًا ـ من موقع «القوة القسرية» على قبول بعض التنازلات الهامة التي لم يكن ليقدمها ـ طوعًا ـ من موقع «التفهم المتبادل» في سياق استخدام أساليب الحوار والتحاج والحلول الوسط «العقلانية». ويصبح بالتالي التحليل السسيولوجي/ الثقافي/ النفسي لعناصر هذه العملية الجدلية والديناميكية المتصلة والمستمرة، هو الوسيلة الأساسية لاستخلاص النتائج النظرية والتطبيقية لهذه التجربة البحثية غير التقليدية. فالمادة المسجلة لجلسات هذا الحوار/ المواجهة تحوي كل عناصر التجربة الحية المشتركة المعاشة بواسطة

---

(٢٢) مثل وجود استمارات البحث التي تمثل جزءًا أساسيًا من أجزاء العمل البحثي الذي يريد الباحثون إنجازه، في أيدي المبحوثين وتحت سيطرتهم الكاملة، وعلى وجه الخصوص في اللحظات الحرجة قرب انتهاء مراحل العمل الميداني واقتراب العلاقة بين الباحثين والمبحوثين من لحظة «الافتراق النهائي». ولقد نجح المبحوثون بالفعل في استخدام تواجد هذه الاستمارات بين أيديهم للمماطلة والتسويف المتعمد وتمديد أجَل لحظة «الافتراق النهائي» الموعودة، حتى تمكنوا في النهاية من اقتناص بند جديد من بنود عملية المقايضة تمثَّل في تبني رئيسة فريق البحث بنفسها مسؤولية إنشاء حديقة الأطفال الجديدة.

وبالمقابل لدى رئيسة فريق البحث، توافر قدرة الاتصال المباشر والتأثير الفعال على القرار لدى الأجهزة المسؤولة في الحي ـ التي تقع معظم مصالح المبحوثين الحيوية تحت سيطرتها ـ وأيضًا لدى الجهاز المركزي الخاص بالحدائق في محافظة القاهرة.

الباحثين والمبحوثين، بما في ذلك عناصر الصراع والمواجهة و«المقايضة» وأيضًا آليات الحوار والقسر بينهما، إلى جانب ملامح التغيير المادي والروحي، وأيضًا التغيير في علاقات القوة داخل مجتمع المبحوثين وداخل فريق البحث نتيجة هذه الممارسات البحثية و «الصراعية» الممتدة.

obeikan.com